٤٤ ٦١٠٠

عورة مكشوفة

أسامة السعيد

عورة مكشوفة/ قصص

أسامة السعيد

الطبعة الأولى ، ٢٠١٠

دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة ، ١ش المعهد الديني ، المرج

موبايل :٠١١٠٦٢٢١٠٣

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تدقيق لغوي :

تصحيح محمد الشاعر

تصميم الغلاف :

كريم أدم

رقم الإيداع : ١٩٩٨/٢٠١٠

I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٦٢٩٧- ٤٤٥- ٣

جميع الحقوق محفوظة©

عورة مكشوفة

قصص

أسامة السعيد

الطبعة الأولى

٢٠١٠



دار اكتب للنشر والتوزيع

إهداء

إلى ...

روح أبي ..حضور دائم رغم الغياب

إلى ...

أمي وزوجتي ... حب بلا حدود

وإلى ....

"جنى" رحيق العمر.. وشقاوة الدنيا!!



أما قبل ...

فهذا هو مولودي الإبداعي الأول، والمولــود "البكــري" يتحمل دائما كل أخطاء التجــارب الأولى.. نمــارس عليــه اندفاعاتنا وحماسنا وقلة خبرتنا.. نحاول أن نقول فيه كل شيء، وربما لا نقول أي شيء.

نتصور أننا نعبّر من خلاله عن أفكار، قد لا تمت بصلة لما كنا نود أن نقوله.. لكنه في النهاية يحمل طعم الطزاجة في كل شيء كطعم النظرة الأولى.. الابتسامة الأولى.. اللمسة الأولى.. القبلة الأولى.. يحمل أجمل طعم للفرحة.. ورائحــة التجربــة الأولى.

وقد حرصت على أن يحمل "مولودي الابــداعي" الأول – وربنا يستر ولا يكون الأخير– معظم نــصوصي الأولى الــتي كتبت في مرحلة الحلم والتجريب ، ولم أغير فيها شيئا رغــم يقيني أنني لو كتبتها الآن لكانت انتاجا مختلفا.. لكنني تمسكت بها على صورتها الأولى لأنها تحمل تلك الروح التي أشــعر أني أفتقدها الآن.. حتى ولو لم تكن بالنضج الكافي.

واعترف أنني قاومت بشدة اندفاع التغيير.. وقررت أن أقدم تلك الأعمال كما كُتبت قبل نحو ١٠ سنوات ، بمثاليتــها.. وكلاسيكيتها.. أو حتى بسذاجتها، فالمثالية ليســت عيبــا.. والكلاسيكية ليست ذنبا.. فالسماء والأرض والزهور لم تتغير منذ خلق الله الحياة.. ولاتزال تملك ما تبهرنا وتمتعنا به.. دون أن نتهمها بأنها صارت "دقة قديمة".

ربما تجدون في الصفحات القادمة أشياء تمتعكم.. وأخــرى تصدمكم، لكنها جميعا بعضا مني.. أحبها رغم كل شــيء.. مثلما نحب أبناءنا حتى لو لم يكونوا الأجمل أو الأذكى.

الجنة الصخرية



(١)

لا يحق لمثله أن يفكر في مثل هذه الأمور خاصة في موقعه هذا ..إنه هنا لهدف أسمى، أما مثل تلك الأمور الصغيرة فلا يجب أن تشغل باله عن هدفه الذي جاء إليه من تلك البلاد البعيدة إلى هذه البقعة المقفرة التي لا يحيا فيها إلا الصخر الذي يرسم لوحات جميلة لكنها أحيانا مرعبة .. لوحات هائلة بلون واحد وخطوط كثيرة ضخمة .. لون الصخور الداكن يحاصر العين، يعترض سبيل بحثها عن لون آخر غير لون الصخور.

جاء إلى هنا وهو يعلم أنه سيترك العالم خلفه.. يعلم منذ جاء إلى تلك الواحة الصخرية أنه يتخلى عن كل شيء ..لن يجد رفيقاً إلا تلك الجبال.. لن يجد سمير إلا تلك القمم الداكنة المخيفة ليلاً.. كان يعلم أنه ليعيش هنا لابد أن يصبح مثل هذه الجبال.. لكنه الليلة وبعد كل هذه السنوات يذكرها في وقت ومكان غير مناسبين على الاطلاق.. فلا يحق للراهب أن يفكر في غير الرب.. في أي وقت، فما باله وهو منقطع للعبادة في الصومعة الصخرية التي ترقد فوق قمة أحد أوتاد الأرض.

(٢)

كانت ذكراها تطارده وتداهم صومعته الحجرية في ليال كثيرة..كان يجاهد ويجاهد ويستعيذ بالرب.. يغرس عينيه في صفحات الكتاب المقدس.. يطلق خياله في القمم البعيدة لعله يهرب من صورها أو يطغى الظلام على أشباح وجهها التي يحاول دوما الهرب منها.. لكن وجهها في كل ليلة كان يهزم.. تضيء عينيها ظلام صومعته ولا يملك إلا أن يستسلم لها، ويمر الوقت معها طويلاً أو قصيراً الذي، فهنا الوقت ليست له قيمة فما قيمة الساعات والأيام بين صخور تعيش منذ آلاف السنين وربما ملايينها دون أن تسأل كم الساعة الآن؟

لا يعلم كم من الوقت يبيت غارقاً مع أطيافها حتى يفيق من غفوته عندما يلسعه شعاع النور المتسلل من بين القمم الداكنة فيستيقظ وينفض عن نفسه ذكراها، ويعود إلى الرب مرة أخرى آلاف الاستغفارات لأن عينيها ويستحق آلاف المرات نجحتا في أن تسرقه منه للحظات حتى يترل إلى الدير للصلاة يومي الجمعة والأحد ثم يستعد بعدها وتستمر ايامه على تلك الحال مرة أخرى للحياة مع القمم الداكنة في الصومعة الصخرية.

(٣)

الليلة لا يستطيع أن يهرب منها .. إنها تطـاردة في كـل شيء.. في القمم الداكنة .. في جدران الصومعة المتصلبة .. في ضوء القنديل الواهن .. في صفحات الكتاب المقدس .. في ثيابه السوداء وفي صليبه الذهبي الذي يرصع صدره.. الليلة عيناهـا تزداد تألقاً أكثر من القمر الذي فشلت القمم الداكنـة في أن تحجب وجهه .. ولأول مرة يشعر أن تلك القمم تبتـسم وأن ألوانها الباهتة تكاد تضيء ولو لم تمسسها نار.

حاول أن يهرب كعادته بوسائله المعهودة .. زاد أرقـه .. حاول أن ينام .. فشل .. قام لينظر في أوراق نتيجـة العـام العابسة المشنوقة على الحائط عله يكون الأحد أو الجمعة فيترل إلى الدير ربما يستطيع أن يفلت منها ..لكنه عاد خائباً.. لمـح التاريخ منقوشاً على ورقة النتيجة وعلى قلبه .. كاد يبتسم إنه يوم ميلادها .. ويوم التقيا.

(٤)

اسمها (كاترين) فتاة تحمل في جبينها شمس الشتاء .. تبعث في أطرافه المتجمدة حين يلمسها الدفء.. في عينيهـــا ســـحر غامض يأسر كل من يراها يجعله عبداً لها.. يـــستحل قلـــوب الناس ولا يهب قلبه لأحد.. على شفتيها تزهر حبات الكـــرز وعطر الياسمين.. وعند عينيها يتوقف الزمن.

طالما قرأ في الكتب القديمة عن تلك القديـــسة (كـــاترين) جميلة جميلات الإسكندرية.. التي أصـــبحت قديـــسة لأنهـــا أحبت.. أحبت الرب وأخلصت في حبه.. قطعـــوا جـــسدها الرقيق قطعة قطعة .. نظرت إلى السماء وابتـــسمت.. حبـــها يمنحها الخلود.. كان يرى في محبوبته الصغيرة صورة القديـــسة ويناديها بـــ"القديسة كاترين الصغيرة.. وكثيراً ما اعتقـــد أن القديسة كاترين لو أنجبت ما كانت لتنجب غير قديسته.

ضاعت عيناه بين القمم الضخمة الداكنة المحيطة بدير سانت كاترين حيث يقيم وبين، ألوان السماء الباهتة وهـــو يهـــذي بكلمات ويغرق في ذكرياته عندما كانت تلقي برأســـها بـــين أضلعه وتهمس" إذا كانت كاترين الأولى استمدت خلودها من حبها للرب فإنني أستمد وجودي وخلودي من حبك أنت".

حاول أن يقاوم وألا يستسلم للذكريات لأنه عندما يذكرها يذكر رغماً عنه لماذا افترقا أو على وجه الدقة لماذا تركهـــا.. تجمعت في عينيه سحب الدمع مغزرة بهطول المطر.

(٥)

كان والداه يريدانه رجل دين.. نقياً .. طاهرا .. يقبل الناس يديه.. لكن سرعان ما سقطت أوراق والديه من شجر الحياة على أحد الطرق السريعة التي لا ترحم أحلام البسطاء.. وكان الألم أشد من أن يحتمل وكان القرار أصعب من أن يفكر فيه.. بغير تفكير قرر أن يصبح راهباً.. تكاثفت غمامات الدمع وبدأ السيل.. يذكر شمس عينيها وهي تغرق في أمواج الدمع الهائج على شطئان جفونها عندما أخبرها بقرار الرحيل.. سيكف عن حبها ليستبدله بحب آخر ربما كان أكبر.. قرر أن يترك حبها ليحب الرب فالقلب لا يتسع لحبين.

وبغير وداع رحل إلى تلك الواحة الصخرية التي تكاد تتجمد من الخوف بين القمم المفزعة.. ظن أنه سينساها في ذلك المنفى الاختياري لكن يبدو أنه من المستحيل أن ينمحي حبها من على جدران القلب الذي ما يزال ينتفض وينبض بحبها رغم انهيار الصخور الساعية لتقبر ذكراها.

(٦)

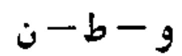
ضاقت به صومعته الحجرية الخانقة فانطلق إلى الوادي.. قرر أن يتكلم مع من يستطيع أن ينقذه مما هو فيه.. انطلق إلى حيث كلم موسى ربه لعل الله يلقي بقلبه الأمان.. أمام بقايا الجبل المنهار عندما تجلى له الرب .. عقد كفيه أمام قلبه.. رفع عينيه إلى السماء وفاض دمعه حتى ابتلت لحيته وارتوت رمال الوادي.. لم يشعر بنفسه بعدها حتى داعبت خيوط الشمس المتسللة من بين القمم الشاهقة أهوايه.. أحس أن قلبه يريد أن يخرج من محبسه في الضلوع.. نظر إلى صليبه الذهبي المدلى فوق صدره وقد لامس رمال الوادي، فقام وقد حسم أمره.

(٧)

إن أولئك الرهبان الذين يرى عظامهم وجماجمهم في تلك الأحواض الزجاجية داخل الدير لاشك أنهم أحبوا الرب.. لكنهم أحبوه على طريقتهم الخاصة.. وهي ليست الطريقة الوحيدة لحبه.. إن الرب لم يخلقنا ويخلق لنا هذا الكون ويبدع في زينته وتجميله حتى نتركه ونهرب إلى تلك الواحة الصخرية المتجمدة صيفاً وشتاءاً..، في خطوات هادئة ثابتة اتجه إلى الدير وهو يفكر.. إننا نعلن حبنا للرب في حبة قمح نلقيها في أحضان الأرض فتضمها في حنان وتخرج لنا نبتة صغيرة تتلمس نسائم الحياة.. إننا نعلن أسمى آيات حبنا للرب عندما نمسح دمعة طفل في ليل بارد قاس لا يرحم.. إننا نقدم للرب الولاء والطاعة عندما نقدم لامرأة عجوز تصارع الجوع الذي ينهش إمعاؤها .. إنه يعشق الرب عندما يعود ليمسح دمع قديسته الصغيرة وينقذ شمس عينيها من أعماق الدموع.. إنه سيقترب من الرب أكثر عندما يروي كرز شفتيها فيستمر ابتسامات ساحرة.

انطلق إلى الأب الأكبر.. قدم إليه طلباً بإنهاء رهبانيته في الدير وفي سطور مشرقة كتب يقول: في داخل كل منا قديس قد يكون مختبئاً وعلينا أن نبحث عنه.. إننا لا نحتاج إلى العزلة

عن العالم أو العيش في جنة صخرية حتى يخرج هذا القديس إلى الوجود.. علينا أن نجعله يعتاد الحياة وسط الناس.. والصخب.. بين الخطايا والتوبة.. الزيف والحقيقة.. بين السماء والأرض.. إن السماء لتفرح ألف مرة بتائب واحد أكثر مما تفرح برجل لم يرتكب ذنباً.


و — ط — ن



(١)

عندما لفظتها السيارة العسكرية الضخمة لم تكن تفكـر في شيء إلا أن تخرج من هذا الجحيم.. الأنفاس حـارة.. أنـات ملتهبة.. عيون غائمة.. أحزان لا تدري معناها كـان صـعباً عليها وهي بنت السادسة أن تفهم لمـاذا الـدموع الـساخنة المحتبسة من عيون عيون أمها وكأنها تحاول بما تملك من قوة ألا تدعها تنطلق وإلا غرقت فيها.

عندما خرجت من السيارة اندفعت إلى سهل منبسط سمعت أنهم سيقيمون فيه معسكراً لهم ولا تدري لماذا تركوا دارهـم الصغيرة الدافئة وتكدسها هذه السيارة المتوحشة لتلقيهم بذلك الوادي المقفر.. ربما كانت أصوات طلقات الرصـاص الـتي أفزعتها في المساء.. ربما أشفق عليها والدها من الفزع، فآثر أن ينقلها بعيداً.. ولكن أين أباها؟!

انفجر السؤال فجأة في رأسها، إنه منذ أن ألقي بها وأمها إلى الشاحنة لم تره.. انطلقت إلى أمها تسألها فأجابت بدمعتين ساخنتين وقالت سوف يأتي في المساء حالما تعد له طعام العشاء.

وبينما كانت الأم تحاول أن تحظى بخيمة من تلك الخيام المتهالكة التي يوزعونها تقيها وابنتها البرد الذي لا يرحم.. انطلقت الابنة إلى حيث أقاموا سوراً من الأسلاك الشائكة.. أسلاك قاسية تلمع في ضوء الشمس كنصل سكين تهيأ للذبح.

لماذا يقيمون هذه الأسلاك؟ لماذا يمزقون جسد في الوادي فلا تستطيع أن تجري وتلعب بحرية؟

إلا أنها رغم ذلك ظلت تلهو غير آبهة بما يدور حولها حتى قاربت الشمس أن ترحل عبر التلال المترامية.. وسألت أمها عن أبيها فلم تجب.. ألحت الطفلة .. أشاحت الأم عنها.. ألحت ثانية .. أشارت الأم إلى التلال وقالت:

- إنه في الوطن...

جرت لماذا تنمهر تلك إلى التلال تنادي أبيها.. انزلقت .. انغرس السلك الشائك في وجنتيها.. تلون السلك بدمها.. سقطت نقطة منه على الأرض.. تشربته الأرض بسرعة.. جرت إلى أمها.. داوته بطرف ثوبها.. كان جرحاً صغيراً لكنه غائر.

وقفت ممسكة بالأسلاك الشائكة تنظر إلى ما وراء التلال.. أمها قالت أن الوطن يرقد هناك وأن أباها لابد سيعود يومـــاً.. فأمها تعد كل ليلة العشاء وتنتظر.. سيحمل أبوها عندما يعود إليها كل اللعب التي تركتها في الدار.. سيحضر لها لعباً جديدة كثيرة.. إنها تريد عروساً صغيرة تطعمها وتلاعبها.. تريد قططاً صغيرة تضعها في ضفائرها.. تريد وتريد.. وسيأتي أبوها ذات مساء.. فأمها مازالت تعد العشاء، وأبوها لم يتأخر من قبل عن موعد العشاء.

(٢)

وقفت تنظر بعيداً إلى ما رواء التلال علـها تلمـح أحـداً يطمئنها.. نضجت الملامح الطفولية وصارت تحمل أنوثة تحاول أن تعلن عن ميلادها وجمالها.. تنعكس في عيونها أشعة الشمس التي تتردد في الظهور من خلف التلال، وكأنها تخشى سحابات الشتاء الداكنة التي تحتل السماء.. واجهت الشمس بوجنـات بيضاء ناصعة مكتنزة بها جرح صغير لكنه واضح.. زاد شوقها لأبيها .. أصبحت تدرك الآن أن الوطن قابع خلف هذه التلال وأنه لم يعد مليئاً باللعب ربما كان مليئاً بأشياء أخرى كالحب.. الدفء.. إنها لا تزال تذكر وجوه الصبية الذين كانت تلعب معهم لابد أنهم صاروا شباباً يافعين.. إنها لا تزال تذكر بريـق عيونهم وهم ينظرون إليها.. ترى هل تزال عيونهم تحمل نفـس البريق.. ترى هل يذكرها أحد منهم.. وانعكس آخر شـعاع الشمس قبل أن تستسلم لأحذية السحاب الثقيلـة في عينيهـا اللتين أغرقتهما الدموع.

(٣)

قبضت على الأسلاك بيد فتية وضـــغطت عليهـــا، كأنهـــا تتحداها أن تمنعها هذه المرة من الوصول إلى أحلامها.. الشمس لا تزال تجاهد كي تظهر خلف التلال..؟! السحب تتكـــاثف تغتال أشعتها الوليدة .. تذكرت والدها.. إنها لم تنسه ومازالت تعد كل ليلة العشاء وتنتظر، فوالدتها أعدت العشاء الأخير منذ سنوات وأوصتها أن تعده لأبيها كل مساء فـــسيأتي حتمـــاً.. ضغطت بشدة.. انغرست الأسلاك في كفيها.. سقطت الدماء منها.. تشربتها الأرض بسرعة.. تذكرت قطرة الـــدماء الـــتي سالت من وجنتيها ثلاثين عاماً.. لا تـــزال الأرض تتـــشرب الدماء بنهم كبير.. لم يمنعها مشهد الدماء من أن تغيب عينيـــاه فيه وتنظر بعيداً إلى الأفق البعيد الأفق المتحتقن.. إلى الوطن .. لابد أنه يحمل دفئاً وأطفالاً.. إنها تحب الأطفـــال.. بعيـــونهم الصافية وأكفهم الرقيقة وابتساماتهم النقية.. لابـــد أن الـــوطن يحمل لها أطفالاً كثيرة وسيأتون مع أبيها ذات مساء.

(٤)

لفظت الشمس آخر أنفاسها في ذلك اليوم وبـــدا وكأنهـــا استسلمت نهائياً لقبضته السحاب وألقت بشعاعها الأخير على وجه استولت عليه التجاعيد.. وبين التجاعيد يبدو أثر لجــرح جرح صغير لكنه غائر.. لماذا يؤلمها الجرح اليوم وكأنمـــا قـــد جرحت منذ ساعة فقط؟! وضعت يدها على الجرح وتذكرت أنه لم يهدأ أبداً وانها كانت تتألم منه دائماً.. إلا أنهـــا كانـــت تمتلك القدرة على قهر الألم.. لكن الآن لا تستطيع أن تقـــاوم وحدها.

عندما ألقت بناظر وبها إلى التلال لم تر شيئاً وليست تدري أهو الظلام قد حل على الكون أم أن عينيها قد أرهقتـــا مـــن الدمع فلم تستطيعان أن تريا وجه الوطن.. حاولت أن تعتـــصر عينيها علها تجود بدمعة تدفئها فقد اشتد الصقيع كان حولهـــا واكتست رؤوس التلال باللون الأبـــيض.. أرادت أن تبكـــي فالدمع يجلب الدفء في الليالي الباردة، لكن الـــصقيع كـــان طاغي القوة.. وتخيلت شكل الوطن الذي لم تستطع أن تراه.. لابد أن في الوطن مكانا صغيرا لم تستطع أن تبني فيه قبراً لها.

ترى هل يتسع الوطن لقبر؟!

نقوش قديمة تنزف



قادني القدر والعمل إلى هنا.. على مدى الرحلــة الطويلــة بالقطار وأنا أتحاشى التفكير في الأمر.. أحاول التناسي.. أقلب في أوراقي.. أستعرض وثائقي.. أتفقد أدواتي.. للمرة العشرين فعلت ذلك.. كل شيء جاهز.. ساعات طويلة تمر.. الصحافة علمتني الصبر.. لكنها لم تعلمني بعد كيف أتحاشى الذكريات؟!

ساعات طويلة لكنها انقضت.. وصل القطـــار إلى هدفـــه وكذلك أنا.. استقبلني زميلي مدير مكتب الجريدة بالأقــصر.. كنت قادماً لإجراء تحقيق صحفي عن معبد الكرنـــك الـــذي تغتاله المياه الجوفية.. استقبلني زميلي بحرارة مبالغ فيهـــا ربمـــا ليخفي ضيقه بمجيئي، بصحبته شخص قدمه إلي على أنه مـــن إدارة العلاقات العامة بالمدينة جاء للترحيـــب بي.. وفي تـــودد مبالغ فيه تعودته من هذا الصنف من الموظفين ظل الرجل اللزج يتحدث طوال الطريق إلى الفندق.. لم أسمع شيئاً مما قال فقـــد كنت مشغولاً بتفقد الطريق وكأنني أراهـــا للمـــرة الأولى، أو كأنني أبحث عن شيء ضائع جئت كي أعثر عليه.

في الصباح كنت في الكرنك أتفقد الجدران التي خنقتها المياه.. ما إن عبرت طريق الكباش حتى انفجرت برأسي وبقلبي الذكريات.. توقعت ذلك لكني لم أتوقع أن يأتي بتلك السرعة!

***

كنا معاً..أنا وهي.. أمسكت بيديها البضة.. دخلنا إلى المعبد.. كنت أبحث عن ذلك التمثال الذي قرأت عنه.. قالوا إنه في مقدمة المعبد.. كان الرجل يقف شامخاً وبين قدميه تقف محبوبته في خضوع وكبرياء.. سارعت هي بسؤال المرشد المصاحب لوفد كلينا عن هذا التمثال، فأشار لها في اتجاهه كفراشة.. طارت إليه.. وصلت قبلي.. وقفت في خشوع تتأمل التمثال.. قالت إنه رائع.. هززت رأسي بالإيجاب.. قالت الرجل يشبهك.. قلت لكنك أجمل من محبوبته.. ابتسمت في حياء.. أمسكت بيدها.. اقتربت أقطف من شفاهها فاكهة طالما حلمت بقطفها.. أدركنا المرشد السياحي يسبقه صوته يحكي قصة التمثال المجهول، حتى الآن لم يعرف صاحبه على وجه التحديد، لكن المؤكد أنه يخلد قصة حب رائعة.. نظرت إليّ في براءة وقالت إنهما نحن.. هو أنت.. وهي أنا.. شعرت بقلبها ينبض في كفي.

***

أشار الرجل اللزج موظف العلاقات العامة إلى بعض العمال في ركن بعيد وقال إن المدينة سارعت على الفور إلى إنقاذ هذه الثروة التاريخية من المياه، وفي لهجة خطابية أخذ يواصل وأنا لا أسمعه، توجهت والمصور بغير إرادة إلى الاتجاه الذي أشار إليـــه فكان بهو الأعمدة.. أخذ المصور يلتقط صوراً أسمعهـــا مـــن صرخات الكاميرا، وبينما الموظف يرشده إلى جهود المدينة في الإنقاذ، توجهت أنا إلى مكان أعرفه جيداً.

***

بمجرد أن عدنا في المساء إلى معبد الكرنك لمشاهدة عـــرض الصوت والضوء.. جرت وانفلتت كفها من بين يدي.. ناداها الضوء فلبّت.. وبينما وقفت صحبتنا تستمع لبداية العـــرض.. كانت هي تقف وحدها تدور وسط بهو الأعمـــدة، وظلـــها يتراقص معانقا أرض المعبد العتيق، والضوء الخافت يجعلها طيفاً في عيني.. وكأنها قفزت من أحلامي لتقـــف أمـــامي فـــاردة ذراعيها وهي تدور متغنية بأغنية عشقناها سوياً "شايف السما شو بعيدة، بعد السما بحبك".. لم أتمالك نفسي.. احتـــضنت الحلم حتى لا يضيع مني ثانية.. همست وهي بين أحضاني:

- ألا تخشى التاريخ.. ألا تخاف أجدادك؟!

اقتربت منها أكثر حتى بدت فاكهة شفتيها أقرب، وقلت:

- لو كان أجدادنا معنا الآن لباركوا حبنا، وربما سبقنا جدانا الواقفان بباب المعبد وفعلاً ما نفعل آلاف المرات.

أغمضت عينيها فارتويت من شهدها.. أفاقت بعد لحظات وقد تحول وجهها لزهرة حمراء خجلى.. كانت أول قبلة.. وآخرها.. نظرت إلى العمود المجاور وتأملت نقوشه.. قالت يبدو أن أجدادنا معنا بالفعل.. أشارت بأناملها الرقيقة لبعض الرموز الهيروغليفية أنها تشبه الشفاه.. ورمز آخر يشبه القلب.. لمست يدها واحتضنت كفانا النقوش.. وقبل أن أسمع نفسي وأنا أردد كلمة أحبك.. كانت صوتها يغمرني بنفس الكلمة.. أغمضت عيني وحلمت بأشياء لم تأت أبدا.

***

فتحت عيني على صوت أحد حراس المعبد بينما كانت يدي تتلمس موضع أنامل حانية افتقدها من سنوات.. يبدو أن هذه الأعمدة صمدت في مواجهة الزمن لآلاف السنوات، عجزت عن أن تحفظ لي ذكرى تحيي موات القلب.. جاء الصوت لينبهني لوجود المصور وذلك الموظف اللزج عند البحيرة المقدسة.. سألت الحارس الأسمر ذا الملامح الدقيقة عن المياه والمعبد.. فأجاب بلهجة صعيدية عميقة.. لكن دمعة واحدة أحرقت عينيه لخصت الكارثة.. كانت دمعة الرجل

أقوى من آلاف الكلمات.. فالرجال هنا لا يبكون مهما ثقلت المصيبة، وقد بكى الرجل!

***

جرت نحو البحيرة.. جلسْت إلى جانب منها.. لم أرها يوماً أجمل من الآن.. صمتت.. سألتها ماذا بك؟ .. أشارت إلى صورتنا المنعكسة على صفحة الماء الراكد..

قالت: هل تعرف فيما كانت تستخدم هذه البحيرة..؟!

قلت: كان الكهنة يباركون الفرعون من مائها عند توليه الحكم، ويقضي فيها الفرعون مع مليكته أوقات الاسترخاء، يطوفون فيها بمركب صغير ترفرف حولهما أغاريد المطربات ووثبات الراقصات..

قالت: أحلم أن أقضي عمري معك في مركب صغير فوق سطح الماء..

نظرت في عينيها فوجدت سحابة دمع تتجمع.. وقبل أن أسألها نثرت أوراق وردة حمراء فوق صورتنا على الماء.. نظرت إليّ فوجدتني محدقاً بعينيها والسؤال ينساب على وجهي.. انسكبت نظرتها على ماء البحيرة ومدت كفها ورشتني بالماء.. وقبل أن أفيق كانت قد جرت لتستقر في مقعدها تتابع بقية فقرات الحفل الذي أوشك على البدء.. وقبل أن أقوم لأتبعها

حانت مني التفاتة لأوراق زهرها الدامية المنثورة فوق صـــورتنا المهتزة على صفحة البحيرة.

***

أشار مسئول الآثار المشرف على المعبد إلى ساعته وقال إن عرض الصوت والضوء يوشك على البدء وقد استغرقنا الوقت أثناء التجوال بأرجاء المعبد وأنه يجدها فرصة مناسبة للتخفيف من حدة يوم شاق.. حاولت الاعتذار، لولا أن وجدت مـــيلاً من زميلي المصور حرص على إخفائه لكنه فشل.. لم أجد مفراً من الموافقة على غير رغبة لديّ، فقد شاهدت هذا العرض منذ سنوات.. وأنا أدرك أنه لم يتغير رغم أن أشياء كثيرة مصاحبة للعرض كانت قد تغيرت.. بأقدام مرتعشة تقدمت لأجلس في مكان أعرفه جيداً.

***

أوصلتني قدماي بخطوات ثقيلة على دربها لألقي بجـــسدي الحائر إلى جوارها.. الأسئلة تتزاحم علـــى عقلـــي فتثقلـــه.. أوشكت أن أسألها فبادرني العرض وبدأ قبل أن أبدأ.. تشاغلت هي بالعرض.. بينما تشاغلت أنا بحيرتي.. الـــصوت رخـــيم.. رنان.. وكأنه يخرج من أضلع تلك الأعمدة الحجرية، أو كأنما يتردد من سبعة آلاف عام.. يجوب الكون كله ثم يأتي ليـــستقر في أذنينا.. كانت قصيدة حب.. أقدم قصيدة حـــب عرفهـــا

التاريخ.. من حبيبة إلى حبيبها الجندي الذي غيبته عنها الحرب، وغابت عنها أخباره.. لكنها مازالت تنتظر.. كانت القـــصيدة التي نقشت حروفها على جدران المعبد تقول: "أشكو إلى الليل وشمس الصباح من لون الحب بلون الجراح فصار قلبي في الهوى مستباح.

توالت الأبيات.. لابد أنها نفس الرموز التي قرأناها سوياً في بهو الأعمدة.. وبين الوجود والعدم، وكأنني لست أنا.. التفت إلى سر وجودي وسببه، دليل حياتي المستقر بجانبي.. وبلا وعي مددت يدي أبحث عنها.. فلم أجدها.. كانت يـــدها تتلقـــى دمعة أمطرتها العيون التي ثقلت عليها سحب الغمام فتـــهاوت تكوي الجفون!!

كانت صحبة الوداع هي نفسها صحبة الاستقبال.. نفـــس الزميل ونفس الموظف اللزج الذي ظللت لا أذكر اسمه حـــتى نهاية الرحلة.. ارتميت في أحضان القطار العائـــد إلى القـــاهرة، حيث الصخب والضجيج، عله ينقذني من صخب الـــذكريات الذي انفجر في أحضان تلك المدينة الهادئة.. تحـــرك القطـــار وتحركت الشجون.. فتحت حقيبتي.. أعيد ترتيب أوراقـــي.. هبت ريح من شباك مجاور.. عصفت بالأوراق.. تمسكت بقوة بما في يديّ وتطايرت أوراق أخرى أخذت ألملمها، وأتـــذكر أوراقا عصفت بها ريح الحياة منذ سنوات لم أستطع حـــتى الآن أن ألملمها.

وصلت إلى القاهرة.. ألقيت بنفسي في أمواج العمل، أخرجت أوراقي المدفونة في جوف حقيبتي.. كانت لا تزال تحمل رائحة المعبد والبحيرة والقطار.. أخذت أكتب تحقيقاً صحفياً عن جدران المعبد التي تلتهمها المياه الجوفية.. وتمنيت لو أستطيع الكتابة عن جرحي القديم المنقوش على جدران القلب.. ولا يزال ينزف!!

أطــلال.. ديجيتال!



انتهى كل شيء..

ماذا أريد الآن؟!

شهور مرت.. تناسيت.. تظاهرت بالنسيان.. هـــل حقـــاً نسيتها؟

لحظات الحنين تمر بطيئة.. مؤلمة.. لا سبيل إلى العودة.

ماذا أريد الآن؟!

.. ليتني أعرف!

أمام الكمبيوتر جلست أحاول استعادة الـــذكريات.. لأول مرة أشعر أنني أريد أن أراها.. صورها جميعاً احفظها على هذا الجهاز.. رسائلها.. عيد ميلادها.. بريدها الإلكتروني.. كروت المعايدة التي أرسلتها إليها وأرسلتها إليّ.. حتى المحادثات الـــتي كانت تدور بيننا احتفظ بها.. في هـــذا الجهـــاز تقبـــع كـــل ذكرياتي.. سأســـتعيدها كلـــها.. ســـأغوص في ذكريـــاتي..

سيذكرني الجهاز.. بكل لحظة عشتها معها.. سيخبرني بكل كلمة كتبتها إليّ.. انتظرت قليلاً.. بحثت عن الملف الذي يحمل اسمها وبه كل ما يتعلق بها..

انتظرت.. لم يظهر شيء.. عاودت البحث.. إجابة واحدة غبية كنت أتلقاها في كل مرة.. لا يوجد ملف بهذا الاسم.. أكاد أجن.. بهذه السهولة تضيع الذكريات.. يُمحى الماضي.. يذوب الحب.. تتلاشى سنوات عمري الجميلة.. أريد صورتها.. فقط.. أفتقد نظرة عينيها.. حتى هذه عجز الجهاز الغبي عن أن يمنحني إياها.

آه تذكرت.. لقد محوت كل ما يتعلق بها في لحظة غضب عندما افترقنا.. نعم ضغطت بيدي هذه على زر الحذف لأمحو أغلى وأجمل ما امتلكت، حتى ولو كان مجرد صورة ورسائل إلكترونية!!

تذكرتها وهي تسخر من قصيدة شعر قديمة كنا قد قرأناها لأحد الشعراء العاشقين وهو يبكي على أطلال المحبوبة،غمرتني روحها المرحة وهي تضحك قائلة:

لو كان لدى أجدادنا بريد إلكتروني.. لما كانوا في حاجة إلى كتابة كل هذه القصائد ليعلنوا حبهم، يكفي أن يرسلوا "إيميل" أو رسالة على "الموبايل" ليعبروا عن كل شيء.

وفي غمرة الغضب والحنين تذكرت أنه بإمكاني استعادة كل شيء من سلة مهملات الجهاز.. آلمني أن يكون مصير أغلى ما أملك وأحلى ما عشت هو سلة المهملات.. تحاملت على نفسي وحاولت استعادة كل شيء.. نقبت في السلة لعلّي أجد شيئاً.. عبثاً ذهبت محاولاتي.. تخيلت وكأن رائحة القمامة الإلكترونية تفوح عبر شاشة الجهاز وتزكم أنفي وأنا أتجول بين الذكريات الملقاة في سلة المهملات، أو لو شئنا الحقيقة في "صفيحة القمامة".. ذكرياتي صارت مجرد قمامة!!

لم أجهد ذهني في البحث عن إجابة، فقد كان سؤالاً بلا معنى.. لكنه أعاد إلى ذاكرتي مشهد والدتي وهي تخرج من بين طيات ملابسها حزمة من الخطابات وكأنها تواريها عن العالم.. كنت أتعجب لعنايتها البالغة بتلك الحزمة الورقية البالية.. حتى كشفت لي أنها خطابات والدي إليها في أيام الخطبة وسنوات السفر بعد الزواج.. كانت تلقي بنفسها بين أحضان الأوراق.. تغوص في سطورها التي تفوح شوقاً.. حتى في أيام الشجار كانت تلجأ إليها تنهل من عبيرها فيصير الغضب وداً صافياً.

- أين حزمة ذكرياتي الإلكترونية؟!

أعد إليّ ذكرياتي أيها اللعين.. لو تدرك ما بي في هذه اللحظة لما أضعتها.. صرت محكوما عليّ بأن أعيش بلا ذكريات.. أعد إليّ ذكرياتي.. أعدها.. أعدها..!!

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أردد هذه الكلمات، بينما يـــداي تهويان على رأس الكمبيوتر فتحطمه تحطيماً.. انهـــرت علـــى المقعد المواجه للجهاز المحطم وقد خارت قواي.. حبات العرق والدموع أغرقت وجهي.. وفجأة.. انطلقت مني نوبة ضحك هستيرية لم أفق منها إلا والدموع تغطي ملامحي.. كنت أتذكر سخريتنا من الشعراء القدامى الذين يبكـــون علـــى الأطـــلال ويسترجعون ذكرى الأحبة.. ليتني كنت مثلهم.. فعلى الأقـــل كان لديهم أطلال يبكون عليها!

صاحب المقام

لم يكن بالمكان سوى الصمت.. صمت عميق تخشاه.. صمت أبدي لا يجرؤ أحد على قطعه.. صمت الموت يلف المكان.. يقطعه سعال اللحاد من آن لآخر.. تكاد أحشاؤه تخرج من جوفه وهو يسعل.. أو كأنه يستصرخ من حوله.

القبور تحتل الربوة أعلى الوادى.. في مكان مقفر، يطل على النهر البعيد.. تبدو بيوت القرية كأحجار نابتة في قلب الوادي الأخضر.. لا أحد يصعد إلى هنا إلا لوداع.. يلقون بميتهم في أنياب القبر ويذهبون بلا عودة إلا مع ميت جديد.. ليس هناك من الأحياء سوى ذلك اللحاد غير معلوم الأصل أو الماضي.. هو الوحيد الذي صعد إلى المقابر.. سكنها فاحتوته.. عاش وسط الموت حياً لا يخشى أساطير أهل القرية عن تلك المقابر.. لا يتحدث مع أحد ولا يراه منهم أحد.. عندما يصعدون بميتهم يجدونه واقفاً يتلقى الجثمان.. ظلام القبر يحجب وجهه.. كيف عرف بمقدم الجنازة.. لا أحد يدري.. لا يكلم أحداً.. ولا يحاولون هم الحديث معه.. يغلق باب القبر ويمضي لا ينظر ولاهم ينظرون.. ولا يهتم أحد بأمره.. تثور حوله الأساطير.. الغموض يلفه.. يقولون إنه أحد الأولياء.. والبعض يقول إنه خاوى الجن فصار سيدهم.. والنساء اللاتي زرنه في الليل بحثاً

عن سحر يفك عقدة عقم أو يدفع برجل واحدة منهن إلى أن يكره امرأته.. يقولون إن سره (باتع).

سعل اللحاد بشدة وبصق على الأرض.. غمغم بكلمات غير مفهومة.. سب القدر الذي ألقاه إلى هذا المصير القذر.. استند إلى أحد جدران المقبرة التي اتخذها سكناً.. سقط على الأرض.. قام ثانية فسقط.. استغرق عدة ساعات يقوم ويسقط وفي كل مرة يزداد سبابه وتنهال لعناته على أهل القرية الذين لا يأتون، وعلى ملك الموت الذي لا يلقي إليه بالمزيد من الموتى.

أخيراً استطاع الخروج من حجرته/ القبر.. سقط في الطمي الذي يزرع به ما يقتات منه بجوار كلبه الأسود ذي العيون الصفراء المخيفة، الذي وجده هنا منذ جاء إلى المقابر، لم يسأل أحدهما الآخر من أين أتى.. كان الشاهد الوحيد على حياته وسط الموتى.. أراد اللحاد الهروب من هذا القبر قبل أن يموت فيه.. إنه يخشى الموت رغم أنه عاش طوال حياته في أجوائه.. حاول الخروج والفرار إلى القرية.. استند في طريقه على إحدى مقابر النساء التي كان ينبشها ليلاً ليخرج منها الجثث المدفونة في ذات اليوم ليضاجعها.. لم يكن يهتم بشكل أو سن أو يراعي للموت حرمة.. كان دائم النبش للقبور يخرج منها ويدخل فيها.. يدفن ليلاً أبناء السفاح، ويلقي بأعمال الدجالين

والسحرة.. كان يهوى النساء ويمقتهن.. ترنح في سيره وسقط ثانية فسب كل النساء الملعونات اللاتي جئن إليـــه والـــلاتي لم يجئن.

عوى الكلب الأسود المربوط عواءً غريباً.. عـــواءً طـــويلاً ومتقطعاً.. نظر اللحاد إليه نظرة مرعبة.. أسكتته.. حاول ثانية الخروج من المقابر.. تعلّق بأغصان متدلية لإحـــدى الأشـــجار العتيقة.. سقط على الأرض منتزعاً بعـــض الأوراق الجافـــة.. ويبدو أنها كانت السقطة الأخيرة.. جحظت عيناه وكأنما رأى الفزع كله.. صرخ صرخة هائلة، سكت بعدها إلى الأبد.. لم يكن يتوقع أن يراه بهذه السرعة وقد كان يلعنه منذ لحظات.. عوى الكلب عواءً ممتداً.. وظل يعوي إلى أن سكت تعباً.

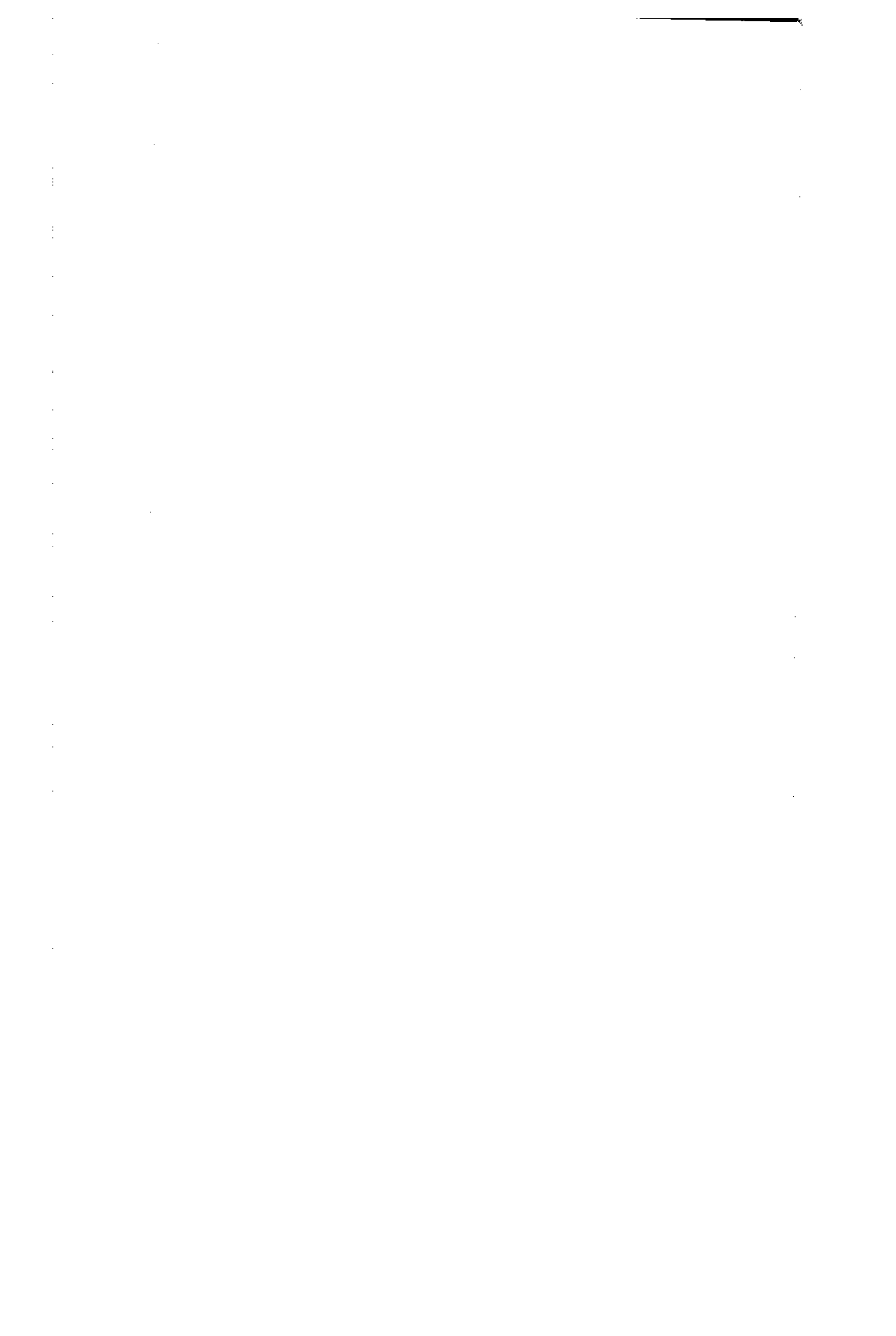
أيام وثار غبار الطريق فعكر الرؤية عبر الأفق الممتد.. جنازة قادمة في الطريق.. وصل الجمع إلى مقدمة المقـــابر.. داهمتـــهم رائحة منتنة.. اكتشفوا أن جثة اللحاد مصدرها.. لفتهم الرهبة والحيرة.. جثة اللحاد منتنة وملقاة ممزقة الثياب وقد نال منـــها أحد الضباع ما نال.. أقسم واحد منهم أن ذلك الرجل مـــن الأولياء وأنه رآه ذات ليلة يطوف شوارع القرية في زي أبيض يشع بالنور، يطعم الكلاب والقطط الضالة وقد ظـــل محتفظـــاً بالسر لأن الأولياء أسرار.. عوى الكلب عواءً طويلاً غريبـــاً..

خرج رجل آخر وقد تدلى فكه من المفاجأة وأقسم بالكعبة أنه رأى ذات مرة ذلك الجثمان المنتن يشع نوراً عندما كان اللحاد يستحم في النهر البعيد وانحنى الرجل على الجثمان المتآكل وأخذ في يده بعض الأوراق الجافة وهتف لابد أنها من الجنة وأخذ يمسح بها وجهه وجسده.. رفع ثالث منديلاً ملوثاً من على أنفه ليقول لابد أن نبني مقاماً لذلك الولي الصالح ليمنحنا البركة.. عوى الكلب عواءً طويلاً حاداً..

أيام وكان الجثمان المنتن ثاوياً في قبر تعلوه قبة كبيرة مطلية باللون الأخضر وقد غطى القبر بكسوة خضراء مطرزة كتب عليها آيات قرآنية وكلمات غير مفهومة تدل على أن هذا القبر يرقد به أحد أولياء الله الصالحين.. تناوب أهل القرية تغيير تلك الكسوة كل عام في مولد كبير يقام للولي الصالح في ذكرى وفاته.. فتقام الولائم وتنصب الملاهي وفي الليلة الكبيرة يحضر من حظي بشرف شراء الكسوة يضعها على قبر صاحب المقام في خشوع طالباً منه البركة، وتأتي النساء للتبرك وفك الأعمال، ويأتي فلاحون بقرابين لعلهم يهتدون لحيواناتهم الضالة أوالمسروقة.. وأصبح الرجال يقسمون بمقام صاحب المقام ويخشون الحنث بالقسم، حتى لا تصيبهم لعنة صاحب المقام.. ولم يعد أحد يسمع عواء الكلب الأسود ذي العينين المخيفتين فقد هرم وأصابه الجرب ولا يزال مربوطاً في المقام يطلق عواء ضعيفاً ومتقطعاً.



الحافـلة



صعدو إلى الحافلة.. كانت ممتلئة.. إنها دائماً ممتلئة.. وقفت طويلاً.. الجو خانق.. رائحة تبغ رخيص تعبيء المكان.. السائق أسمر اللون.. حاد الملامح.. أسود الشعر.. كثيفه.. تحجـرت عيناه على عجلة القيادة والطريق.. ضحك أناس في المؤخرة.. التفتُ.. صمتوا.. بكى طفل.. ضمته أمه.. قام شخص يـافع من المنتصف.. همّ بالنزول.. أسرعت أجلس مكانـه.. نظـر إليّ.. ارتجفت.. أمسك بالباب نـاظراً للـسائق.. سـقط .. اختفى.. ضحك أناس في المؤخرة.. ارتجفتُ.

مال رجل ذو شارب كث على امـرأة محـت الأصـباغ ملامحها.. ضحكت .. مد إليها يده.. صـرخت.. التفـتُ.. تصاعدت الضحكات من المؤخرة.. قامت أم تحمل صغيرها.. نظر إليّ الطفل وابتسم.. أشار مودعاً.. ودعتـه وابتـسمت.. سقط وأمه من الباب.. صوت الضحكات في المؤخرة يخيفني.. انكمشت في مقعدي.. أخرجت كتاباً.. قـرأت.. لا أفهـم

شيئاً.. تسمرت عيناي فوق حروفه المشنوقة على وجه الصفحة.. قام الرجل ذو الشارب والمرأة ذات الأصابع وذراعه تلتف حول خصرها.. تمايلت.. نظر شيخ وقور إليهما.. أطلق الرجل ذو الشارب على رأسه الرصاص.. انفجر العجوز في مقعده.. صرخت امرأة بجوار الشيخ.. زغردت أخرى في المؤخرة.. ازداد انكماشي.. سقط الرجل والمرأة من الحافلة التي لا تتوقف أبداً.. تواريا.. "لافتة" على جانب الطريق تعلن النهاية مليون كم.. صرخ رجل يقف بجواره رجل آخر يعد فقعودا.

صرخ الأول: "لص" صفعه الثاني على وجهه.. بكى.. استغاث بشرطي يتثاءب.. حملق فيه.. صفعه الشرطي ثانية جرى مذعوراً إلى باب الحافلة.. تبعه الشرطي مطارداً.. ضحك اللص.. ابتسم شاب لفتاة.. جلس إلى جوارها.. ابتسمت.. أمسك يدها.. قاما نحو الباب.. تواريا.. اختفى كل ركاب الحافلة واحداً بعد الآخر.. أحسست بوحشة.. زرعت عيني بصفحة الكتاب البيضاء.. التفتَ حولي.. صرت وحيداً.. طويت كتابي.. هرعت إلى باب الحافلة.. لم ينفتح.. ركلته.. جذبته بكل قوتي.. خارت قبضتي.. سقط كتابي.

صرختُ في السائق: أوقف هذه اللعينة.

نظرتُ إلى السائق.. شاب شعره وتطاير.. ارتخت ملامحه..
تجعد وجهه.. نحل جسده .. نظر إليّ هازاً رأسه أن ليس بعد..
تحجرت عيناه وتسمرت ثانية على الطريق التي لا تنتهي.



بوسة



استبد بهما الشوق.. لم يعدا يطيقان ابتعاداً.. ولم تعد الكلمات تكفي.. وحرارة المشاعر تغلي بداخل قلبيهما.. لمسة واحدة تكفي.. وقبلة واحدة تغني.. وعندما قررا أن يصمتا ويدعا عناق الشفاة يتحدث، لم يجدا مكاناً ينفذان فيه قرارهما.

كان عاقلاً.. وكانت مندفعة.. لكن عقله لم يعنه على اكتشاف المكان الذي يشهد ذلك الحوار الصامت، ولا اندفاعها وصل إلى مرحلة أن يفعلاها أمام الناس.. لطالما حلمت أن تفعلها أمام الناس جميعاً، ولكن المسافة بين الحلم وتحقيقه كانت أبعد مما تصورت.

في حديقة الحرية مال عليها.. اقتربت شفاهه من وجنتيها.. مليمترات تفصله عنها.. وبعدها شفتيها.. وبعدها.. وفجأة انشقت الأرض عن أحد حراس الحديقة يجري إليه مسرعاً ليمنع الانهيار الأخلاقي الذي أوشك على الوقوع!

وقبل أن يفتح الحارس فمه بكلمة واحدة كانا على باب الحديقة يغادرانها في انكسار إلى وجهة غير معلومة.. ربما بحثاً عن مكان أهدأ ينفذان فيه جريمتهما الجميلة.

حاولت هي أن تمسح عن وجهها آثار الجريمة التي تمنت أن تكتمل.. أو ربما كانت تمسح عن وجنتيها آثار الحمرة التي اعتلت وجهها وعيون حراس الحديقة يتعقبانها، تخترق جلدها.. تفتش عن بصمات القبلة التي لم تحدث والفضيحة التي لم تتم.

كانت المفاجأة كفيلة بجعلهما يتراجعان عما انتويا.. لم تنطق.. أحس بها.. أمسك يدها.. صار مندفعاً.. وهي العاقلة.. قال لها نذهب إلى الأوبرا.. دار الفن الراقي.. حيث الناس يقدرون قيمة الحب ويمارسونه بعيداً عن ادعاء الفضيلة، وهناك أيضاً، لا يوجد حراس!!

بدا صمتها موافقاً على الخطة الجديدة.. فهي تريده مثلما يريدها.. انطلقا إلى الأوبرا.. ولحسن حظهما كانت ملآنة في تلك الليلة بأنشطة عديدة.. لم يسألهما الحراس على البوابة عن وجهتهما.. ظلا يبحثان عن مكان هادئ تغطيه الأشجار وتنحسر عنه الأضواء.. فلا يريان سوى شفتيهما على ضوء قلبيهما وموسيقى دقاته.

نظر بعيداً وتهلل وجهه.. اشتدت قبضته على كفها قسوة وكأنما تمنيها بقرب اكتمال الحلم.. اتسعت خطواتهما.. يودان لو يطيران إلى تلك الواحة الهادئة وسط المدينة الصاخبة التي ترفض الحب وتدعي الفضيلة.. كان الطريق منحنياً خلف مسرح الأوبرا الكبير.. أضواء المسرح وموسيقاه تتهادى

فتضفي جواً حالماً على المكان.. نظر إليها وابتسم وكأن يــد القدر قد أعدت لهما المكان لاستقبالهما، وكأن هذه الموســيقى مشاركة بسيطة لحفلهما الصغير.

نبضات قلبه صارت مسموعة.. يداه ترتعــشان.. كفهــا منقبضة ككتلة ثلج.. لأول مرة تشعر بأنوثتها تجأر.. تــستعد لأول قبلة.. أول لمسة.. إحساس غريب يتفجــر بداخلــها.. هكذا في الشارع.. خلف تلك الشجرة ستمنحه ما لم يستطع أحد قبله أن يحصل عليه.. حانت منه التفاته إليها وهما على بعد خطوات من ميدان التلاقي.. التصميم بادي في عينيها.. يود لو تطوى لهما الأرض.. سيقول لها كل ما في قلبه دفعة واحدة.. ستنقل شفاهه ما لم يستطع اللسان البوح به.

- آه لو كان معايا فلوس كتير كنت جهزت عــشاً يليــق بأول لقاء.

هكذا حدث نفسه.. وخلف الشجرة الضخمة ممتدة الفروع وقفا.. اقترب منها.. شــعرت بأنفاســه تغمــر وجههــا.. اختلاجات شفتيها تدعوه أكثر.. اقترب.. أكثر وأكثر.. أحس بإشعاعات جسدها الدافيء تحتويه.. كل خلايا جسده تهتــف نشوانة باللقاء المنتظر.. لحظة أن يلتقسي القطــب الــشمالي بالجنوبي.. تختصر المسافات كلها في لحظة واحــدة.. حــرارة شفتيها أقرب إليه الآن من نبضات قلبه.. وفجأة غمرهما ضوء

شديد.. هل يكون هذا الضوء هو وهج التلاقي أم أنــه نــور صدورنا يتفجر ليمنحنا الرؤية مع الإحساس.

لم يكن الضوء المقترب نابعاً من قلبيهما أو ناتجاً عن حرارة اللقاء.. إنما كانت أضواء سيارة إسعاف تبحث لها عن موقــع تأوي إليه.. ويبدو أن هذا هو مأواها.. أخذت تقترب أكثر.. أفاقا وصوت محركها يصرخ في وجهيهما وكأنه أجراس الإنذار التي توشك أن تعلن فضيحتهما.

اندفعا بلا أدنى تفكير قبل أن يقترب الــسائق ويفتــضح أمرهما الذي لم يكتمل.. أخذ هو يجفف عرقه رغم برودة الهواء القارصة.. بينما انشغلت هي بطريقة غريزية مثيرة في تــسوية خصلات شعرها الذي لم يلمس.. لاحــظ حــارس البوابــة ارتباكهما، كاد أن يستوقفهما، لكــن خطــوات العاشــقين المذعورة كانت أسرع.. ابتسم الحارس.. ومضيا.

لم ينطق بكلمة.. كان القرار قد اتخذ.. التــسليم بــالأمر الواقع.. لن يكتمل الحلم الليلة.. ربما في ليلة قادمة.. لعن المدن التي يغتال فيها الزحام أحلام العاشقين.. لعنت الفقر الذي أصر أن تكون أول قبلة لها في الشارع.. لعنا في ســرهما الفــضيلة الكاذبة حيث تطارد أعين الناس العاشقين في الشوارع رغــم أنهما يجلسان أمام الجميع في النور.. بينما يــصمتون إزاء مــا تشهده الشقق المفروشة الفاخرة، وغرف الفنادق الأنيقة.

في طريقهما لركوب المترو صبا اللعنات على كل شـــيء.. وبينما هما يهبطان على السلم المتحـــرك نظـــرا إلى بعـــضهما وتهاوى القرار الصامت.. كانا وحدهما على السلم.. لا أحـــد يشاهدهما.. شفتاها كقطعة الجمر المشتعل.. وهـــو كالجـــائع الذي اختطف فجأة من أمام مائدة عامرة فسال لعابه سدى.. بلا أية مقدمات التقى القطبان الشمالي والجنوبي.. أحست بـــه نهراً عذباً يطفئ جمر الحرمان.. وأحسها فاكهة الجنة ينهل منها ما يشاء.. مضى أوان الحلم وجاء زمن التحقق.. إنـــه يـــشعر بشفتيها فعلاً.. قطعتان من السحاب المثقل بالمطر.. زهرتـــان حمراوان مبللتان بقطرات الندى.. طفلان صغيران يمرحـــان في أحضان شفتيه.. تلاشى الوجود من حولهما.. لم يعدا يشعران بشيء إلا بنفسيهما.. حلقا في آفاق الكون الرحبة.. لكن يـــداً ثقيلة فجأة انتزعتهما من آفاق الكون لتلقي بهمـــا في مكتـــب الأمن الخاص بالمحطة.. كانت يد أحد الحراس بالمحطـــة.. فـــظ الملامح.. جامد الوجه.. قوى البنية.. كث الشارب.. وقـــف أمام الضابط وقبضتاه محكمتان على ملابسهما.. وبصدر منتفخ حكى للضابط ما حدث وكأنما قد اكتشف مـــؤامرة لتـــدمير القاهرة كلها.. وزاد وأفاض في رواية تفاصيل الجريمـــة الـــتي شاهدها.. نظر الضابط اللزج إليها.. تجاهلته تماماً.. تفـــرس في كل جسدها.. وفي هدوء مصطنع دار حولها مـــرتين.. كـــان الرعب يخيم على الوجوه.. سأل أسئلة كثيرة.. لم يسمعا منها شيئاً.. عقدت المفاجأة الألسنة.. صرخ الضابط في وجهها:

- إيه يابت عاملة لي بنت ناس ومكسوفة !

لم تحتمل.. انسابت الدموع المحتبسة على الوجنات المتجمدة.. أراد أن يشتبك مع الضابط مدافعا عنها.. أن يبدو أمامها قوياً.. لكن محاولاته كلها انتهت بصفعة مدوية على وجهه زادت من آلامهما.

وقبل أن يواصل الضباط ذبح فريسته إذا بضجة تأتي من الخارج.. هرع الضابط والجندي خارج الحجرة.. أغلقا الباب عليهما.. أراد هو أن يواسيها.. أن يقوي نفسه بها.. أن يقول شيئاً.. نظرت إليه والدموع المتدفقة تغمر الوجه الحزين.. تجمدت الكلمات على شفتيه.. بكت.. انفجرت الدموع رغماً عنه.. دون أن يشعرا ألقت برأسها على كتفه تبحث عن شاطئ تلقي عليه رأسها المثقل بالأفكار السوداء عما سيلقيانه في اللحظات القادمة.. ضمها إليه.. هدهد على رأسها أن اطمئني.. وامتدت شفتاه تعانق جبهتها.

في تلك اللحظة اندفع الضابط إلى الحجرة صارخاً بلهجة مسرحية..

- الله.. الله.. وفي مكتبي كمان؟!!

عورة مكشوفة



تسلل النبأ إلى آذاننا ونحن نلهو بالفسحة لحريق هائل نشب بأعشاب جافة.. انطلق الجميع.. تركنا الكرة وقطع الزلط التي كنا نلهو بها.. توجهنا فوراً نحو مسجد المدرسة.. كانت جالسة هناك.. بضع دقائق فقط كانت كافية ليتكدس معظم الطلاب أمام درجات السلم المؤدي إلى المسجد.. حيث تجلس.. صمت الجميع.. تقافزنا حتى نحظى برؤية ذلك المشهد الفريد.. تسللت بين أكتاف زملائي حتى أرى.. كرهتُ قصري.. تعجبت هي لماذا كل هذا الزحام؟!.. لم يجب أحد.. حدق الجميع بها أكثر وأكثر.. اكتشفتُ أنا من زاوية خاصة ذلك السر الكبير الذي لم أصدق زميلي وهو يهمس إليّ منذ لحظات.. رأيت كل شيء.. وبوضوح.

* * *

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي تجلس فيها (الدادة) الشابة في فسحة المدرسة بجوار المسجد والكانتين تبيع أكواب الشاي الرخيصة لتلاميذ المدرسة.. كنا نعلم أن هذا الشاي هو ما تبقى من أكواب الأساتذة.. لكننا كنا نشربه مستمتعين.. اعتدنا على مشهد (الدادة) وهي تجلس لتصب لنا الشاي من برادها

الضخم والأكواب نصف نظيفة.. الغبار الذي تثيره أقدامنا الصغيرة وهي تعبث بقطع الحجارة كبديل عن الكرة كان يضفي على الشاي طعماً مختلفاً.. لم يكن في مشهدها ما يجتذب العيون.. إلا اليوم!!

* * *

لدقائق لا نعرف عددها تسمرت العيون على (الدادة) التي لم تتجاوز الثلاثين من عمرها، وإن بدت تحت وطأة الشقاء والفقر أكبر بكثير.. تعجبت المرأة:

- فيه إيه يا أولاد؟!

لم يرد أحد.. البعض فضل الاقتراب أكثر ربما بحثاً عن رؤية أوضح وربما للاستئثار بالمشهد وحده دون الآخرين.. نفد مخزون الشاي من البراد.. بينما الشفاه الصغيرة تتجرع المشروب الأسود ببطء والعيون النهمة تلتهم المرأة بسرعة وعنف.. تحركت في داخلي وأنا أرى هذا المشهد لأول مرة مشاعر غريبة.. كل حواسي تركزت على التهام مشهد ما بين فخذي(الدادة).. أو بالأحرى ذلك "الشطر" الذي كشفه ثقب غير صغير في بنطلونها (الكاستور) المهترئ الذي كانت ترتديه تحت الجلباب ولا يبدو أنها كانت ترتدي شيئاً تحته ليسترها.

* * *

لم أكن قد رأيت هذا الموضع من امرأة من قبل.. ولا أعتقد أن أياً من زملائي الذين تحجرت عيونهم في مساحة سنتيمترين فقط من جسد تلك المرأة قد رأى ذلك المشهد من قبل.. كان المشهد مثيراً وغريباً.. نصف عورتها يطل من ثقب سروال بال.. نظرات متوحشة لأطفال على أعتاب المراهقة.. وجوه شاحبة وعرق بارد يغمرنا.. أفواه مشدوهة تتدلى من هول ما ترى.. في كل لحظة يزداد التكدس حتى بدا أن الأمر يصعب تجاهله.. وأسئلة (الدادة) البلهاء لاتزال تتردد، بينما كل منا مشغول بالتهام المشهد.. نستدعي من الذاكرة صوراً.. نختلق أفعالاً.. نتصور أحداثاً لا تحدث.. لكننا جميعاً كنا مشغولين باستكشاف السر الأنثوي الأكبر الذي يشغل عالم الرجال ويظلون طوال عمرهم يطاردونه.

* * *

فجأة جاء هادم اللذات ومفرق الجماعات.. كان أحد فراشي المدرسة.. قصير.. أسود.. دميم الملامح.. نظارته السميكة الداكنة تخفي عينين جاحظتين مخيفتين.. شق الصفوف يتبعه اثنان من التلاميذ.. أحدهما من أخبرني بسر (الدادة).. يبدو أنه اكتفى بما رأى وأراد أن يكون بطلاً على حسابنا، فأفشى بالسر لذلك الفراش الدميم ليفسد متعتنا المثيرة.

أمسك الفراش يدها بعنف.. طلب منها أن تنصرف من المكان.. قالت باستكانة وبلاهة:

– والشاي ؟!

نهرها ثانية و لم يجب.. أحس كل واحد فينا أن ذلك الرجل ينهر امرأته بعدما اكتشف سر علاقتهما التي استمرت لدقائق.. قامت المرأة باستسلام مهزومة لا تعرف السبب وراء ذلك الانفعال.. بينما كانت مئات العيون لا تزال تلاحقها.

* * *

جلس الفراش الدميم مكانها.. تلاحقت اللعنات مختلطة برذاذ فمه على المدرسة والتلاميذ وقلة أدبهم، بينما كان الحشد الكبير في فناء المدرسة يتبدد على صوت أجراس انتهاء الفسحة.. ولأيام تالية كان سر (الدادة) هو القاسم المشترك في جلسات النميمة الصغيرة.. كنت أشعر داخلي بأن شيئاً تغير.. ما هو؟ لست أدري، ويبدو أن الخبر قد تسرب أيضاً لبعض المدرسين.. وطوال الأيام التي تلت ذلك الحدث الكبير لم يستطع أحد منا أن يعود إلى ألعابه المعتادة في الفسحة، فقد كنا نحرص على التمشية بجوار المسجد والكانتين.. نشتاق لمذاق الشاي ولمشهد (الدادة) التي لم تظهر منذ ذلك اليوم، لكننا كنا نصطدم دائماً بوجه الفرّاش الدميم.. بينما كان بعض المدرسين يحرصون على التواجد بيننا – على غير العادة – للحفاظ على أمن وسلامة التلاميذ.. هكذا قالوا لنا!!

هارمونيكا



وسط أحد أكثر شوارع القاهرة ازدحاماً جلس الرجــل.. منظره لا يوحي بشيء، حتى أنك قد تمر إلى جواره ولا تــراه، لولا انبعاث الألحان التي يصدح بها.. يجلس الرجل يحمل علــى قدميه صندوقاً مملوء بعلب ملونة صغيرة.. وبين يديه واحدة من محتويات تلك العلب.. هارمونيكا.. يداعبها بــشفتيه فتغــرد بألحان مبهجة.. خطوات الناس في الشارع تغتــال الألحــان.. يحاول الرجل جاهداً أن يرفع صوت ألحانه.. تموت من جديــد تحت الأقدام.. لا يراه أحد.. يقوم ليبحث عن مكان أهــدأ.. تحاصره الأحذية وأبواق السيارات وصراخ المحركات.. يهرب الرجل بموسيقاه إلى الشوارع الجانبية.. لا يشتري منه أحــد.. يظل يعزف حتى المساء.. يعزف ويعزف حتى يكاد يغشى عليه من التعب.. يختفي وسط ظلام شوارع القاهرة.. يعاود الظهور في الصباح وقد تأهب للعــزف وكأنــه مايــسترو يمــسك الهارمونيكا بأطراف أصابعه.. يداعبها بشفتيه.. تتعالى صيحات الأقدام.. يواصل العزف.. في كل يوم يأتي إلى نفس المكــان.. يعزف ألحاناً مبهجة.. بقلب حزين.



سجن الروح



اليوم موعد الزيارة.. اعتادت أن يأتي إليها.. يقف خلف الحاجز الحديدي.. ضباب الأسلاك يحجب عيونه الجميلة.. سماجة الحراس تعوقها عن أن تذوب في زرقة عينيه السماوية.. موعد الزيارة اليوم.. لكنه يوم مختلف.. هي تعلم السبب جيداً وقد استعدت له.. لكنها تحاول التماسك.. تقبض على أجنحة خيالها كيلا تحلق فيما تفكر فيه.. حنين آسر يجتاحها.. شوق مستبد إليه يحتل كل خلاياها.. خوف ورهبة يعكران صفو أفق خيالها!!

بعيون غائمة ووعي غائب استلقت على فراشها الكئيب الذي يلخص حياتها في السجن منذ سنوات.. أخذت تسبح في أمواج الذكريات.. لم تشأ أن تبحر بعيداً إلى الأسباب التي ألقت بها إلى هنا.. فالإحساس بالظلم أبشع من وحشة السجن.. لا تريد أن تفسد روعة اليوم.. ركزت خيالها عليه.. هو فقط.. لا تريد أن تذكر شيئاً سواه.. لم يفتر حنينها إليه يوماً.. زوجاً وحبيباً وصديقاً وابناً.. رفيقاً وعشيقاً ومصيراً.

في كل زيارة كانت تقف خلف الحاجز الحديدي تنظر إليه في خشوع، وكأنما تتلو سطور عينيه للمرة الأخيرة.. لم تفقد يوماً إحساسها به.. أو إحساسه بها.. رغم السجن والحراس والزوار والكآبة التي تعشش في أركان المكان.. يستمع بقلبه تلاوتها لآيات العشق.. يسبح بحبها.. يتغنى بعشقها كصوفي منجذب لقوى النور الفوقية.. يتبادلان كلمات قليلة.. ومشاعر كثيرة.. كلمات بسيطة.. يغالبان بها الشوق.. يطاردان الوحشة.. ما إن يستبد سلطان الشوق حتى يصمت الكلام.. ترتعش الشفاه.. تختلج المشاعر.. تمد أناملها عبر فتحات السلك الذي يحول بينهما وكأنما تتحسس ملامح وجهه.. عادتها القديمة أن تتحسس وجهه قبل أن تغمره بالقبل.. يمد هو أصابعه.. يصده السلك.. يستقبل عبر ذرات الهواء ملمس يدها.. نسائم قبلاتها الأسيرة.. يحتضن كفها الرقيقة.. يضمها إلى صدرها.. يسمعها دقات قلبه.. تنبض باسمها.. يرفعها إلى شفتيه يلثمها.. يرضيان بلقاء الخيال بديلاً عن وحشة الواقع.. تنتهي الزيارة.. ولا تنتهي المشاعر.

في هذا اليوم لن تضطر إلى النظر لعينيه بل ستعانقهما.. لن تمد أناملها عبر فتحات السلك بل ستحتضن كفيه.. فاليوم يوم اللقاء.. حصل زوجها على تصريح بعد معاناة قضائية طويلة يمكنه بمقتضاه أن يختلي بها.. وحدهما سيكونان.. عناء شهور

طويلة من التقاضي بحثاً عن حقه فيها.. تناسـت سـخافات البعض.. واعتراضات البعض الآخر.. تهون كل الصعوبات في سبيل التلاقي.

كم حلمت بهذا اليوم.. لكنها لم تتـصور أن يـأتي.. وأن تكون فيه بهذا الخوف.. أيمكن أن تخشى لقاءه.. أصارت تخاف من لقاء الحبيب.. هل امتد جليد السجن إلى نبـع مـشاعرها فأحاله كتلة متجمدة.. انطلقت بداخلـها أسـئلة كـثيرة لا ترحم.. لم تقطعها سوى صوت السجانة الذي أتاها ليناً ناعماً – على غير العادة – محملاً بابتـسامة خبيثـة، يـدعوها إلى استقبال زائرها الوحيد في غرفة المـأمور، خرجـت عبارتهـا الأخيرة في ميوعة زائدة وتصنع، وكانـت إيـذاناً بـانطلاق ضحكات رقيعة من جوف العنبر أطلقتها السجينات اللاتي كن يعلمن بالخبر.. زغردت إحداهن وخرجن وراءهـا وكـأنهن يزففن عروساً.. أغلقت السجانة باب العنـبر الـذي لم يمنـع صوت السجينات وهن يغنين لها أغاني الزفاف والـضحكات تتعالى.. زادها ما حدث انقباضاً.. لكنها أصـرت ألا تـدع لشيء الفرصة لإفساد فرحتها باللقاء.. بغريزة أنثوية عدّلت من شعرها وجلبابها الفضفاض الأبيض.. تعثرت في مشيتها خلف السجانة أكثر من مرة.. أفكار متداخلـة ومـشاعر مختلطـة اجتاحتها طوال رحلتها التي بدت لها قصيرة جـداً في الردهـة

المظلمة في الطريق لغرفة المأمور، حتى أن خطواتها تباطأت لولا صوت السجانة المنكر الذي يحثها على الإسراع.

فجأة وجدت نفسها أمام غرفة المأمور.. كل شيء حولها كان يجري بسرعة على غير العادة.. استأذنت السجانة في الدخول.. خرج المأمور معها.. رمقها بنظرة خبيثة تكرهها.. قال لها بصوت آمر ليخفي مشاعره الحقيقية.. نصف ساعة فقط ولن يزعجها أحد!! ثم فجأة خرج زوجها في إثره فارتبكت أكثر.. كانت تظن أنها ستلقاه في مكتب المأمور.. لكن يبدو أن هناك ترتيبا آخر.. نزلوا الأربعة درجات السلم القديمة إلى البدروم.. انحرفوا تجاه غرف الغسيل.. توقف المأمور وقال في لهجة ذات مغزى:

- آسفين لم نستعد بشكل كاف.. لكن هذه الحجرة ستفي بالغرض!!

أمر السجانة وهو يهم بالانصراف أن تقف أمام الحجرة حتى تنتهي النصف ساعة فتصطحبها ثانية إلى زنزانتها.. لم تكن هي تفكر في هذه الأثناء في أي شيء.. اختلط بداخلها صوت السجانة.. لمزات السجينات.. نظرات المأمور.. نظرات زوجها المشفقة التي رافقتها طوال الرحلة إلى هذه الغرفة الكئيبة.. لم تفق إلا على شيء رقيق يحتضن يديها.. كانت يده.. انتفضت.. لم تكن أدركت أنهما قد دخلا إلى الحجرة

فعلاً.. نظرت حولها فلم تجد إلا أدوات الغسيل وبقايا ثياب السجينات القذرة وروائح كريهة تنبعث من البطاطين التي فرشت إحداها على الأرض!!

انتفضت مرة أخرى عندما اقترب منها وحاول أن يحتضنها.. أراد أن يتكلم فبادرته بالسؤال عن السجانة.. تخيلتها وهي تتلصص عليهما من ثقب الباب ثم تروي ما رأت للسجينات.. دفعته في صدره مذعورة عندما اقترب منها للمرة الثالثة.. لم تسمع صوته وهو يستجديها أن تعبر معه حاجز الغربة الذي أقامته الأيام والسنون بينهما.. أن تحاول معه الإبحار في رحلة حب جديدة.. اقترب منها.. انكمشت.. انزوت في أحد أركان الغرفة القذرة.. وأصوات ضحكات السجينات تتردد في أذنيها بشكل مخيف.. هستيري.. أخذت تدور في الغرفة كلها وكأنها تحاول الهرب من الأعين التي تنهشها وتراها تطل من الجدران.. تفتش في داخلها.. تمزق جسدها.. تعاقبها على حبها.. اقترب منها.. حاول أن يضمها إليه كطفلة صغيرة تبحث عن الأمان، تلوذ بأحضان أبيها في ليلة باردة.. كادت أن تستسلم للبكاء.. وأن تستريح على صدره من عناء الوحشة لولا أن تذكرت عيون السجانة والسجينات.. عاودتها الرعشة الهستيرية.. انطلقت بعيداً عنه والعرق يغمرها رغم أن جسدها كان باردا كقطعة ثلج.. بجنون انهالت على باب الحجرة صفعاً.. حتى فتحته السجانة.. صرخت فيها :

- أعيديني إلى الزنزانة!!

حدثتهما السجانة وبلهجة مستكينة تتوارى خلفها ابتسامة خبيثة قالت:

- لم يمر سوى خمس دقائق فقط!!

صرخت:

- أعيديني الآن!!

بلا حراك وقف.. لا يفهم شيئاً.. خرج وراءها يريـــد أن يلحقها قبل أن يغيبها ظلام الممر الطويل.. أراد أن يسألها لماذا؟ وقبل أن يسأل تلقى الإجابة من عيونها التي تبتعد شيئاً فشيئاً.. بينما كان مطر الدمع يلهب الوجه، لكن نزيف الروح أشـــد إيلاما.

الآن .. مـــات أبي



لماذا تبكي أمي؟

ولماذا ترتدي ذلك اللون الأسود الذي أكرهه؟ ولماذا ترتدي عمتي وخالتي مثلها؟

لماذا يبكون جميعاً؟

لابد أن شيئاً قد أصاب أعينهم فبكوا !!

لماذا لا أرتدي الأسود مثلهم بل إنني كنت سعيدة بفستاني الجديد.. ألوانه زاهية جميلة ويحمل كل الألوان التي أحبها.. فجأة ارتفع البكاء.. نظرت إلى أمي وأنا مرعوبة فإذا بها أشد الجميع بكاء.. لم أستطع أن أتحمل فلابد أن عين أمي تؤلمها بشدة حتى تجعلها تبكي هكذا، ولكن لماذا يزيد بكاء الآخرين في ذات الوقت.. هل أصابهم جميعاً نفس الألم؟!

انتظرت أن يظهر أبي في الجمع الواقف على الجانب الآخر من الطريق حيث يقف الرجال لعل أمي تبتسم – كعادتها – عندما تراه.. انتظرت طويلاً و لم يظهر.. عدت بعيني إلى أمي التي احتضنتني بقوة وزاد بكاؤها حتى بكيت لبكائها.

ذهبنا إلى مكان مترب شديد الحرارة.. كل البيـوت فيـه قصيرة وصغيرة.. ليس هناك بيت فيه يعلو عن دور واحـد.. وضع بعض الرجال الذين كانوا يحملون صندوقاً خشبياً طويلاً ما كانوا يحملون أمام أحد تلك البيوت الصغيرة وقد فتح بابه.

تعلقت بذيل رداء أمي عندما بدأوا في فـتح الـصندوق.. وسط بكائي وبكائها سألتها عن هذا الشيء الأبيض الذي يرقد في الصندوق.. تعجبت عندما انحنت أمي علـيّ وقالـت في صوت تقطعه نهنهات البكاء أن هـذا الراقـد هـو أبي، ولم أصدق.. فأبي يحب الألوان الزاهية مثلـي كيـف يرضـى أن يضعوه في الصندوق بهذه الطريقة ولماذا يغطون وجهه.. لابـد أنه يبتسم لي الآن وهم بهذا الثوب يحجبون ابتسامته.. حاولت أن ألقي بكل هذه الأسئلة على أمي إلا أنني تراجعـت بعـدما شاهدتها تبكي في صوت مرتفع يفوق كل أصـوات المحـيطين عندما هموا بإغلاق باب ذلك البيت الصغير.

اشتدت قبضتي تمسكا بذيل ردائها الأسـود.. وبعـد أن انصرفنا سألتها:

- لماذا تركنا أبي في ذلك البيت الصغير ولم يأت معنـا إلى بيتنا الكبير؟!

لم ترد.. بدت وكأنها تفكر في شيء تقوله لي.. عـاودت التساؤل في إلحاح.. قالت في صوت مرتعش ان أبي قد مات..، ولأول مرة لا أفهم أمي فسألتها بنفس الإلحاح:

- ما معنى مات؟!

قالت إنه صعد إلى السماء.. كدت أطرح سؤالاً ثالثاً لـــولا أن أمي قد انفجرت في البكاء مرة أخرى فزادت حيرتي، لقـــد وضعناه في ذلك البيت الصغير في الأرض فكيـــف يـــصعد إلى السماء؟!

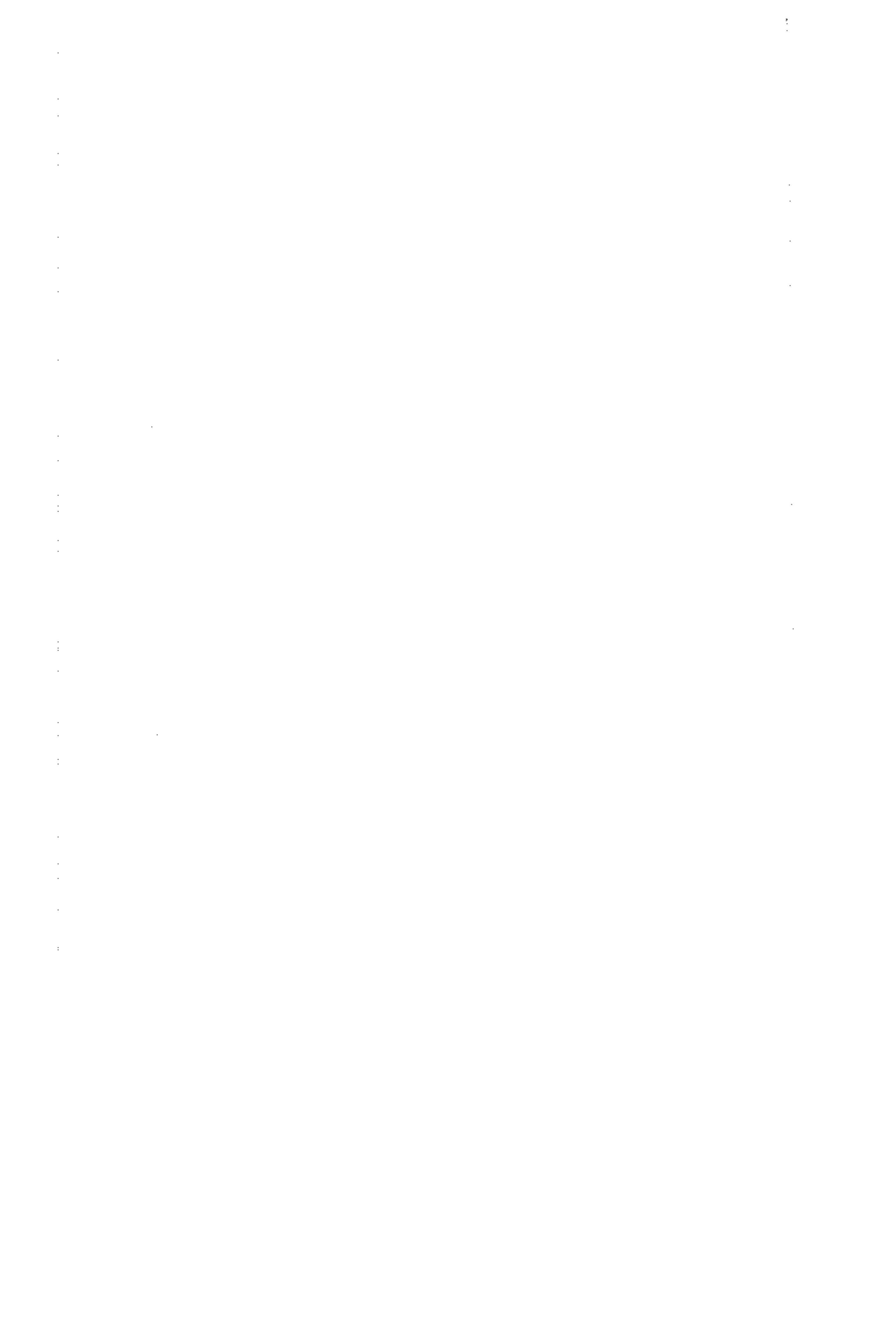
لم أستطع أن أتوقف عن طرح الأسئلة الصامتة دون أن أجد إجابة، فقد زاد بكاء أمي ربما لأن أبي صعد إلى السماء دون أن يودعنا ويقبلنا كعادته.. أقسمت أن أخاصمه عندما يعـــود.. وصلنا إلى بيتنا.. انطلقت إلى غرفتي وألعابي التي حرمت منـــها يوماً كاملاً.. لم أرضع العروس الصغيرة و لم أغير لها ملابـــسها ولابد أنها تبكي الآن.. وبقيت بين لعـــبي طـــويلاً، إلا أنهـــا أصبحت مملة.. أين أبي الآن؟!.. فهو الذي يستطيع أن يبتكـــر ألعاباً جديدة ويدير هذا القطار الكبير ويجعله يدور وأنا أقـــف وسط قضبانه أقفز فرحة.

سارعت إلى أمي أسألها: متى سيأتي أبي من السماء؟!

لم أتلق رداً منها غير البكاء.. ضمتني إلى صدرها وقالت في صوت هامس مرتعش لن يعود.. لن يعود.

وعرفت ساعتها معنى كلمة (مات) أي أنه لن يلعب معـــي ثانية، سيتوقف قطاري الطويل إلى الأبد فقد كان أبي الوحيـــد الذي يعرف كيف يديره.. دفنت رأسي في حجر أمي وبكيت، فالآن .. مات أبي.

وقائع اعتقال عمر بن الخطاب!



فجأة ساد المكان هرج ومرج وتوترت ذرات الهواء وهي تحمل أوامر الرؤساء المتطايرة إلى مرؤوسيهم تستحثهم الإسراع لإعداد المؤتمر الصحفي الذي سيعلن فيه الرئيس النبأ الذي سيهز العالم.. الترقب صار كخيوط العنكبوت التي اقتنصت عقول وأفئدة كل المتواجدين بالقاعة الأنيقة التي يطيب للرئيس أن يلتقي فيها بالصحفيين..الأخبار منذ الصباح تتواتر.. مندوبو كل الوكالات العالمية والشبكات التليفزيونية يتوافدون ويتسللون من كل صوب لعلهم يحظون بالسبق الذي سيعلنه الرئيس، لكن تكتم كل المحيطين به وإصرارهم على الصمت يؤكد أن هناك شيئا غير عادي يلوح في أفق الأحداث.

لم يطل الانتظار.. أطل الرئيس بوجهه المبتسم، صدره المنتفخ يوحي بالثقة.. حيا الحاضرين وجلس في هدوء ملقياً ملفاً أزرق أمامه في حركة مسرحية.. هدأت كل الأصوات من همهما حائرة بينما اصطنع الرئيس أنه يتفحص الملف الذي أمامه ثم تكلم.. أخيراً تكلم:

"في انتصار يوصف بأنه حاسم، استطاع رجالي — وصمت لحظات مجدداً بعد أن نطق بتلك الكلمة - استطاعوا أن يلقوا القبض أخيراً على الرأس المدبر لكل العمليات الإرهابية التي عانينا منها طوال السنوات الماضية، والتي حذرت العالم منها مرارا وتكرارا.. وهذا يثبت صدق حدسي ونفاذ بصيرتي.. وللحقيقة وبكل تواضع هذا ليس جديداً عليّ، بل إنه يمكن القول إن هذه الموهبة قد لازمتني منذ أن كنت طفلا فلم تكن أمي تستطيع أن تشتري شيئا من حاجيات المترل إلا بعد الرجوع إليّ وكذلك أبي أما الأطفال في المدرسة فكانوا...."

ومال على رأس الرئيس، الذي بدا أنه اليوم أكبر من أي وقت مضى، رجل مخيف ذو ملامح غربية وهمس في أذنه فلم تلبث ملامح الجدية، التي كانت قد زالت عن وجه الرئيس، أن عادت إليه ثانية ليضيف:

"استطاع رجالي.. وصمت لحظة — بعد أن تلقوا العديد من التقارير السرية حول شبكة الإرهاب الكبرى وقادتها أن يلقوا القبض على رأس هذه الشبكة وكبار أعوانه".

ساد التهليل والتصفيق سماء القاعة المكيفة وزغردت الكاميرات وهي تلتقط صور الرئيس الذي انتفخ صدره أكثر وأكثر، وانبعج رأسه أكثر من اللازم حتى بدا كمطرقة واستطرد الرئيس وهو يفتح الملف الأزرق ويقرأ منه.. "هذا التنظيم يطلق عليه اسم تنظيم "الصحابة" ويقوده رجل خطير

اسمه عمر بن الخطاب، سعودي الجنسية كان قبـل احترافـه للإرهاب يعمل خليفة للمسلمين، وقد أفادت التقارير الأمنيـة رفيعة المستوى أن هذا الرجل قد دأب على إطلاق العديد مـن الأفكار الهدامة مثل العدالة الاجتماعية والرحمة بالفقراء وأنه قد تحالف مع اللصوص ومنع إقامة حد السرقة في عام "الرمانة".

توتر الرجل المخيف الواقف إلى جوار الرئيس وانحنى عليـه فتلجلج الرئيس وقال:

آه..آه .. اسمه عام الرمادة!

على الفور عادت أيدي الصحفيين الذين كانوا يكتبون كل حرف من كلمات الرئيس إلى تعديل ماقال.

أمسك الرئيس بالملف الأزرق ووضع منظاره الطبي علـى عينيه وأخذ يقرأ "ومن واقع التحريات الأمنية التي تمت علـى مدى شهور طويلة تأكد أن هذا الرجل الخطير المدعو "عمر" لم تقتصر أفكاره الهدامة على الداخل فقط إنما امتدت إلى السياسة الخارجية أيضا وأنه انتقد الاتفاقيات الدولية التي عقدها الدولة وفي مقدمتها اتفاقية "كامب ديفيد" وسعى إلى احتلال القدس بل وقام باقتحامها فعلاً وذهب لتسلم مفاتيحها مـن راعـي كنيستها الذي اعترف لرجالي في تحقيقات لاحقة أنه سلمها له فعلاً!

وتراجع الرئيس في جلسته على المقعد الـوثير واستـسلم لنظرات الإعجاب التي أحاطت به من كل اتجاه، وأزعجـه أن

ينحني على أذنه الرجل المخيف الواقف إلى جـــواره وحدجـــه بنظرة غاضبة قبل أن يعود إلى الميكروفون ويقول:

وبالطبع أنتم تعلمون مدى تعقد مثل هـــذا النـــوع مـــن العمليات وقد شارك في هذه العملية العديد من الأجهزة الأمنية في الداخل والخارج وكان لتعـــاون أصـــدقائنا في المباحـــث الفيدرالية عظيم الأثر في إتمام العملية بنجاح.

رفع رجل في مؤخرة القاعة يده طالبـــاً الكلمـــة.. تـــردد الرئيس، ونظر إلى الرجل المخيف بجواره فهزّ رأسه، فأشار إليه الرئيس بالكلمة فسأله:

"سيدي الرئيس كيف استطعتم القبض على هـــذا الرجـــل وأين وجدتموه"

تنحنح الرئيس قبل أن يجيب:

"بناء على توجيهاتي التي أصدرتها لجميع الأجهزة الأمنيـــة تمت محاصرة هذا الإرهابي الخطير، الذي واجهنـــا صـــعوبة في تحديد موقعه بدقة، إذ كان يتنقل بين آلاف الكتـــب وعقـــول البسطاء.. لكننا استطعنا بعملية استخباراتية معقدة أن نلقـــي القبض عليه.

سأل رجل آخر:

"هل أدلى بمعلومات عن شبكته والعمليات التي قام بها؟

للأسف إن هذا الرجل يتحدث لغة غريبة أفادت التقـــارير الأمنية ان اسمها اللغة العربية وهي لغة قديمـــة لم يعـــد أحـــد يتحدثها الآن.. ولم يعد لها أي أثر لكن البحث يتواصل حاليا لإيجاد لغة مشتركة لاستمرار التحقيقات".

هتف آخر: هل وجدتم معه أية أسلحة غير تقليدية؟

أجاب الرئيس بثقة:

نعم اكتشفنا معه يبدو أنه غير تقليدي، وهو يخـــضع الآن لعمليات فحص مكثفة سلاحاً غريباً هذا السلاح اسمه "الدرة" وهو عبارة عن قطعة قصيرة من الخشب تشبة العـــصا، ومـــن المرجح أنها تحتوي على ميكروبات أو فيروسات غير معروفـــة لنا.. والغريب أن ذلك الإرهابي الخطير لم يحاول أن يستخدمها ضدنا، أو حتى يحاول الانتحار بها.

تعالت أصوات في أرجاء القاعة.. نريد أن تعرضوا صـــورة ذلك الإرهابي الخطير.

فنظر إليهم الرئيس في حنق ثم تحول إلى الرجـــل المخيـــف بعينيه فأشار بيد مرتعشة فإذا بجدران القاعة تتحول فجـــأة إلى شاشة عملاقة تعرض صورة رجل ضخم الجثة، ذا لحية كثـــة، ممسكاً بدرة في يده، فإذا بالذعر يجتاح القاعة وتنبـــت لكـــل الحاضرين ذيول وشوارب رفيعة وتـــبرز أســـنانهم الأماميـــة ويتحولون إلى جرذان مذعورة تجري في كل اتجاه، بينما كان الرئيس لايزال جالسا على مقعده يداعب ذيله الطويل ويؤكد:

ستتابع سياساتنا في ملاحقة الإرهاب والإرهابيين في كل أنحاء العالم وقد أصبحنا قريبين جدا من عراب الإرهـــاب الأول في العالم.. وأضاف في صوت تلاشى بين أصوات صراخ الجرذان المذعورة: المسألة مسألة وقت.. في حين كان يتأهـــب القـــط المخيف الواقف إلى جوار الرئيس لالتهامه.

عسكري



ثوبه الميري الـ"الميري" الأسود.. ياقته الخشنة ألهبت رقبته.. حبات العرق المتساقطة من جبينه إلى عينيه زادتـه ضـجراً.. لكنها أزاحت عنه جانباً من نظرات المـصلين المؤلمـة.. يـده الممسكة بالسلاح ارتعشت .. سمع صوت ضـابطه يناديـه.. هرول إليه مفزوعاً.. طلب منه أن يحضر سجادة صلاة ليصلي الجمعة بجوار "البوكس" المرابط أمام المسجد يحاصره أو يراقبـه فلا فرق.. جرى العسكري .. انتزع السجادة من طفل صغير يصلي إلى جوار والده.. تساءل في سره.. هـل توضـأ هـذا الـ"..." إنه منذ جاء إلى العمل في الصباح وهو جالس نفـس الجلسة لم يتحرك.. يطالع الـصحيفة في صـمت.. وعينـاه كضابط محترف.. تقطعان الأفق جيئة وذهاباً عله يلمح شيئاً.

ردد العسكري صامتاً: بالتأكيد هو حتى لم يغتسل منـذ أن نام مع زوجته.. سمعته يحكي لصديق عـبر الهـاتف المحمـول بطولاته في الفراش.

سمع الإمام يدعو: اللهم أهلك الظالمين بالظالمين.. تـرددت بداخله كلمة "آمين" مئات المرات.. أقيمت الصلاة قام الضابط

للصلاة استأذن العسكري أن يصلي هو الآخر.. نظـــر إليـــه الضابط باحتقار صارخاً:

أنت صدقت .. ده شغل يا روح أمك!!

ورقة العمــر

الغيوم في هذا الصباح تغزل خيوطها حول أفق السماء، وأفق روحي أيضا.. حالة التوحد اليوم بين الكون وبيني في أعلى درجاتها.. أشعر وكأنني ملك تلك الغيوم التي تحتل صفحة السماء فتحيل ضوء الشمس إلى أشعة رمادية وئيدة.. ربما يشعر الناس بانقباض لمثل ذلك الجو.. إلا أن روحي تنتشى مع تراكم الغيوم.. تتساقط ذرات المطر على وجه الزجاج.. فتقع إيقاعاتها في نفسي رقيقة.. آخاذة.. تشتد صولات الريح فتتراقص لها فروع الأشجار.. وتمتزج خلجاتي معها في رقصة حالمة.

"هذا الصباح سيكون يوماً مختلفاً وجميلاً " !!

هكذا حدثت نفسي وأنا أتدثر بثياب ثقيلة تقيني البرد.. دفنت رأسي في سترتي الصوفية.. شعرت أنني أقترب من نفسي.. لم أشعر بها يوماً أقرب من تلك اللحظة.

استقبلتني السماء بزخات باردة من المطر.. انتعشت لها روحي فتسارعت خطواتي.. موعد العمل لا يزال مبكراً.. آثرت اختراق الشوارع مشياً.. استمتع بهذا الاستقبال الكوني الحافل لفصل الشتاء.

الأجساد العابرة غارقة في الملابس الثقيلة تتأفف من البرد.. أدخنة المطاعم تتصاعد والرواد يتزاحمون عليها طلباً للطعام والدفء.. السيارات تمرق بجواري مسرعة يخلف عادمها موجة من الدفء المختنق برائحة الوقود.. كدت أصل إلى منتصف المسافة التي تفصلني عن العمل.. لكنني فجأة ولسبب غير معلوم قررت تغيير وجهتي.. إلى أين؟.. لا أدري!!

لا أريد اليوم الذهاب إلى العمل.. غبي أنا لو أضعت هذا اليوم حبيس جدران مكتبي، أؤدي أعمالاً روتينية تافهة، لن يتوقف العالم إذا لم أذهب إلى عملي.

حملتني قدماي إلى النيل.. ذلك الساحر الراقد في مجراه منذ آلاف السنين.. ملتقى العشاق.. متنزه البسطاء.. وقفت أمامه شارداً.. المطر يزداد.. لا عشاق الآن في هذا الوقت، ولا في ذلك الجو وكأنهم العصافير تفر إلى أوكارها، إذا ما تكاشفت الغيوم.

كنت آتي إلى هنا مع أصدقائي نلهو ونسخر من العشاق، فلما عشقت هجرت أصدقائي لأخلو لمحبوبتي.. فلما هجرتها

كنت آتي لأخلو إلى نفسي.. أستعيد الذكريات مع مشاهدة العاشقين، هكذا حياتنا دائماً.. لقاء وهجر وبحث دائم عن الذكريات.

ما هذه الفلسفة الفارغة؟! هل سأضيع اليوم في مثل هذه الثرثرة؟! لا يوجد أهم من التغزل في جمال الكون في تلك اللحظات النادرة.. السماء الرمادية احتوتني.. فألقيت بنفسي في أحضانها.

فجأة وجدت يداً تربت على كتفي بحنو بالغ.. رجل رث الثياب والحال.. وجهه لا يكاد يبين من "التلفيحة" الصوف التي يلف بها رأسه لتقيه سهام البرد.. الجزء المكشوف من وجهه مليء بندوب الزمن الغائرة.. حسبته شحاذاً.. مددت يدي في جيبي.. منحته بعض النقود.. لكنه لم يرحل.. ظل واقفاً يتأمل وجهي.

سألته:

- هل تريد مني شيئاً؟

ابتسم و لم يعقب..

- هل تعرفني؟!

حاوبني بالصمت.. هممت أن انصرف.. تشبثت عيونه بي أكثر فلم أستطع التحرك.. كانتا صافيتين وغائرتين وغامضتين

إلى حد مخيف.. شعرت أنني أنظر من خلال عينيه إلى داخله.. وأنه يكشف كل ما بداخلي بعينيه المقتحمتين.

مد يده وأخرج من جيبه ورقة.. ناولني إياها وهمس:

– حبات العمر ستنفرط.. فانتظر ساعتك الآن قبل أن تداهمك.. قلوب العارفين لها عيون.. ترى ما لا يراه الآخرون.. إذا عرفت السر فلربما تعيش سعيداً.. أو ربما إصابتك لعنة المعرفة.

أعاد الرجل الغريب إليّ النقود التي أعطيتها إياه وهمّ بالانصراف، اندفعت نحوه.. سألته:

– ماذا تعني بهذا الكلام؟!

– ماذا كتب في تلك الورقة؟!

– أجبني !

– لا تتركني هكذا وترحل..

أمسكت بكتفيه.. أردت أن أستوقفه بالقوة.. أشاح عني بوجهه.. وقبل أن ينصرف نظر إليّ وردد كلمة واحدة اخترقتني كسهم مشتعل:

– عمـــرك!!

انصرف وهو يردد:

- حبات العمر ستنفرط.. وما بدأ حتماً سينتهي..

تباعدت خطواته وكلماته الأخيرة تتردد في داخلي.. عدت إلى المكان الذي كنت أقف فيه وهممت بفتح الورقة .. أحقاً في هذه الورقة مكتوب عمري.. متى سأموت.. كم سأعيش.. إنها كنز.. لا.. بل هي لعنة.. هل سأكون سعيداً لو عرفت متى سأموت.. ربما كان ذلك بعد سنوات طويلة فأستمتع بحياتي.. اطمئننت إلى هذا الخاطر.. لكن سرعان ما داهمني خاطر آخر.. وماذا لو كان الموعد أقرب مما توقعت.. أصابني الغم.. حاولت الهروب من تلك الحالة.. لماذا لا يكون ذلك الرجل كاذباً.. هل يعرف الأعمار إلا الله.. نعم هذا الرجل نصاب.

رددت هذا الكلام لأطمئن نفسي.. لكنها طمأنينة زائفة، سرعان ما تبددت مثلما تبددت الغيوم مع بشائر الأشعة الدافئة.. التي بدأت تغمر الأفق.. نسيت كل شيء حولي.. إلا تلك الورقة الراقدة في قبضتي.. ترى ماذا كتب فيها.. متى سأموت.. متى؟!

هرعت إلى المترل.. ألقيت بجسدي المثقل بالغم على الفراش.. حملقت في سقف الحجرة.. بياضه شاهق كالثلج وأيضاً كالكفن.. انزعجت لتلك الخواطر.. أغمضت عيني أريد النوم.. أتراني لو نمت هل أصحو ثانية؟!

أسرعت خارجاً من الحجرة.. سأذهب إلى المقهى.. التقـــى بأصدقائي هناك.. سأحكي لهم ما حدث.. سيـــصير الأمـــر موضوعاً للسخرية.. سأنسى معهم تلك الورقة.. اندفعت أعبر الطريق.. مرت سيارة مسرعة بجواري.. تراجعت في ذعر.. هل سأموت الآن بحادث سيارة؟!

لا.. لا أريد.. مثل تلك الميتة البشعة.. إن كان ولابد مـــن الموت، فلأمت في فراشي.. مشيت بجوار الحـــائط عائـــداً إلى البيت.. بخطى متثاقلة صعدت السلم.. سأتصل بـــأمي علـــها تمنحني بعض الأمان.. حتى لو مت ســـأموت إلى جوارهـــا.. أمسكت بالهاتف.. طلبت الرقم.. لا.. لن أزعجهـــا بتلـــك الخرافات.. ستظنني جننت من حياتي وحدي.

انزويت في حجرتي.. الجدران تبدو أضيق ممـــا تعودتهـــا.. أخرجت الورقة من جيبي.. تأملتها.. سأفتحها ولـــيكن مـــا يكون.. لأنهي ذلك القلق القاتل.. ماذا سيحدث لو عرفـــت.. على الأقل سأستريح من تلك الخواطر المزعجة.. لا.. ربما لـــو فتحتها يكون ذلك إيذاناً بنفاد الموعـــد وأمـــوت في نفـــس اللحظة.. سأسقط ميتاً ولا يعرف أحد ما حدث لي.. ستتعفن جثتي ويشم الجيران رائحتها المنتنة.. ساعتها ســـيعرفون أنـــي مت.

ما تلك الخواطر القاتلة؟!.. مـــاذا أفعـــل.. ســـأذهب إلى العمل.. نظرت إلى الساعة.. إنهـــا الحاديـــة عـــشرة.. نعـــم تأخرت.. لكن على الأقل سأجد من ينقذني مـــن أفكـــاري السوداء تلك.

أسرعت بالنزول.. ما إن خرجت من منزلي حـــتى داهمـــني الليل.. الليل في هذا الصباح الباكر.. إنها الحادية عشرة لـــيلاً.. أيمر الوقت بتلك السرعة.. أفقدت إحساسي بالزمن؟!.. لابـــد أنها إشارة لنفاد العمر.. تحسست الورقة المدفونة في جيبي منـــذ الصباح جاثمة على قلبي.. سمعت نبضي يتصاعد.. تعلو ضرباته وكأنها طبول الحرب.. جريت في الشارع بلا وعي.. إلى أين أذهب .. هل أذهب إلى المقابر لأرى مصيري.. هـــل أذهـــب لأحد المساجد أصلي به وأستغفر ربي وأتزود لآخـــرتي.. هـــل أذهب إلى إحدى الحانات أو أحد بيوت الدعارة أبحث فيهـــا عن متع الحياة التي حرمت منها نفسي طويلاً.. لابد أنني سأجد في الخمر والنساء سلوتي قبل الرحيل عن الدنيا.. لكـــنني لـــو فعلت ذلك سأكون عاصياً.. ماذا أفعل هل أتشبث بالدنيا.. أم أنطلق إلى آفاق الآخرة؟!

أيام طويلة متشابهة مرت بي.. وأنا أســـير تلـــك الخـــواطر السوداء.. لا أشعر بالوقت.. لا أدري ماذا يحدث حولي.. اليوم كله أقضيه سجين حجرتي.. أحملق في سقف الحجرة.. أتخيـــل نفسي وقد مت ووضعوني في القبر.. ترى هل سيكون روضـــة من رياض الجنة.. أم حفرة من حفر النار؟!

شيء واحد ظل يطارد أفكاري.. تلك الورقة اللعينة التي منحها لي ذلك الرجل الغريب.. آلاف المرات حاولت أن أفتحها.. لكنني كنت أتسمر في اللحظة الأخيرة.. أكاد أنفجر.. إنني أنفجر فعلاً في كل لحظة.. تتحول روحي لملايين الشظايا.. لا شيء يطفئ الجحيم الذي أشعلته بداخلي تلك الورقة الغامضة.. قمت إليها.. حدجتها في احتقار.. دفنتها في جيبي.. ارتديت ملابسي على عجل.. انطلقت إلى الشارع أبحث عن نسمة باردة تهدئ من احتراق نفسي.. ساقتني قدماي إلى النيل.. بلا إرادة وقفت أمام نفس الموقع الذي التقيت فيه بالرجل الغامض.. لا شيء يدخل السرور إلى نفسي حتى مشاهد العاشقين التي كنت أهواها.. ولا نسائم الشتاء المنطلقة من رئتي إلى الهواء.. وقفت شارداً أتأمل وجه النيل.. أتراه لو كان يعلم مصيره هل كان سيجري كل هذه الرحلة من المنبع حتى المصب.. أتراه لو علم النهاية، هل كان ليتحمل مشقة الرحيل من جوف البحيرات العذبة ليلقي آلامه في بحار الملح ؟!

تناثرت نظراتي على صفحة النهر الراحل إلى ما لا نهاية وأخرجت الورقة الدفينة في صدري منذ أيام.. وبدون أن أفتحها مزقتها.. تهادت القطع الصغيرة وتطايرت كطيور خرجت للتو من محبسها لتفترش صفحة النهر الذي حملها

بعيداً، بينما كانت ضحكاتي تتصاعد بهستيريا.. الكل ينظر إليّ بتعجب.. وأنا لا أبالي سوى بمشهد الأوراق الممزقة.. الذاهبة إلى رحلة اللا عودة...



انفلونزا .. الحنين !



٢٠ يونيو

حنين مفاجئ.. لم أستطع النوم.. في الصباح الباكر عملت لوقت متأخر.. مازال الحنين يلازمني.. ذهبت للسينما.. النوم لا يزال بعيداً.. والحنين يتملكني.

٢١ يونيو

انشغلت في بعض الأمور.. صورها لا تفارقني.. صوتها يغرد في أذني.. التفتُ أكثر من مرة لامرأة تشبهها.. في الطريق زادت لفتاتي.. كل النساء اليوم يشبهنها.. زادني الشعور بالحنين والحيرة اضطراباً.. ذهبت لصديق.. تحدثنا في أمور شتى.. لم يفارقني الحنين بعد.. ذهبت لأنام.. الليلة أشبه بالبارحة.. والحنين أشد ألماً.. وضعت الوسادة فوق رأسي.. اختنقت أفكاري فغلبني النوم.

٢٢ يونيو

رن جرس الهاتف.. رفعت السماعة.. لا صوت هنـــاك.. لابد أنها هي.. هل عاودها الحنين أيضاً.. دقائق وأنا أهتـــف.. ألو.. آلو!

يبدو أنها أرادت سماع صوتي فلم تغلــق إلا بعــد فتــرة.. ترددت في طلبها.. رفعت السماعة.. تدفق صوتها هادئاً كعادته إلى أذني.. لم أستطع أن أغلق السماعة.. آلو .. قالتها ثلاثـــاً.. صوتها يبدو مصاباً بالبرد.. قلقت عليها.. أغلقـــت الهـــاتف.. طوال النهار أعاني القلق.. وأعراض البرد تجتاحني رغم أني غير مصاب بشيء!!

٢٣ يونيو

اليوم إجازة.. العمل كان يلهيني.. لن أجد أحداً أو شـــيئاً يسليني.. جلست للكتابة.. لم أستطع.. فتحت درجاً بمكـــتبي كنت قد أغلقته منذ تركتها.. دفنت صورها وخطاباتها فيـــه.. ارتعشت يدي.. أغلقت الدرج.. أعدت فتحـــه.. أغلقتـــه.. فتحته.. إغلاق.. فتح .. أخيراً فتحتـــه.. وضـــعت صـــورها أمامي.. كانت جميلة.. لأول مرة ألمح جمال عينيها.. لم أكـــن أهتم بذلك من قبل.. فتحت أحد الخطابات.. قرأت.. شعرت بالبرد.. ارتعشت.. أغلقت الخطاب.. علـــى ظهـــره كتبـــت

(أحبك) بعرض الصفحة كلها.. لأول مرة أراها.. البرد شديد.. ذهبت للنوم رغم أنني لم أستيقظ إلا منذ ساعة.

٢٤ يونيو

مراجعة سريعة للنفس صباحاً وأنا ذاهب إلى العمل.. لماذا تركتها؟!.. كانت هي السبب.. ربما كنت أنا.. ارتعشت أطرافي.. إنني لم اتخذ القرار إلا بعد تفكير طويل.. تذكرت مشهد دموعها في لقاء الوداع.. ملمس يدها وهي تحاول أن تستبقيني وأنا أصر على الرحيل.. كنت قاسياً وحاسماً، كان لابد من ذلك.. دفعني أحد ركاب المترو من ظهري فترلت فجأة في محطة غير التي أبغيها.. فجأة شعرت بدوار.. عدت للمترل على الفور.. وقضيت اليوم نائماً.

٢٥ يونيو

صباحاً قبل أن أقوم من الفراش.. مددت يدي للتليفون طلبتها.. ردّت في صوت هادئ.. كان صوتها قد تحسن.. تذكرت أنها تجيد التعامل مع أعراض البرد من كثرة ما أصيبت به.. لم أكن أذهب لطبيب.. كانت تصف لي الدواء.. وكنت أشفى.. ردت بتأفف:

- آلو .. !

أغلقتُ السماعة.. سمعت قطرات المطر تلطم زجاج النافذة.. إنها تمطر.. كم كنت أحب هذا المشهد.. كنا نهوى السير تحت المطر.. تبللنا السماء بمائها.. قبلتها مرة فوجدت شفاهها دافئة.. ظللت أشعر بالدفء ثلاثة أيام.. ضحكت عندما طلبت منها دفئاً جديداً.. الصيف فمنحتني دفء شهر كامل!!

٢٦ يونيو

في تكاسل ذهبت إلى العمل.. قضيت الوقت في أعمال روتينية.. لمحني أحد الأصدقاء.. جلس إلى جواري.. سألني عن حالي.. لم أجب.. عرض عليّ أن أشترك في رحلة تنظمها الشركة إلى أحد الشواطئ وآخر موعد للاشتراك هو اليوم.. قلت في براءة واستنكار:

- شاطئ إيه في البرد ده .. إنني أعاني آثاره حتى اليوم!!

ضحك الصديق حتى كاد يسقط من على مقعده.. وبعد أن هدأت نوبة الضحك التي أصابته قال وملامح الدهشة والعجب لم تفارقا وجهي بعد:

برد إيه يا راجل.. ده إحنا في عز الصيف.. وأنا بأحـــاول أكلمك عن الرحلة من أسبوع لكن تليفونك عطلان!!



من يوميات فتاة عراقية *



السبت.. ٢٠٠٣

اسمي بلقيس.. فتاة عراقية.. اليوم أتم الثالثة عشرة من عمري.. طالبة في مدرسة كربلاء الإعدادية للفتيات.. أعيش مع أمي وأختي.. أبي مات قبل أن أراه.. لا أدري لماذا أكتب؟! أو ماذا أكتب؟! ربما أعود للكتابة مرة أخرى.

الثلاثاء.. ٢٠٠٣

اليوم زارنا ضيف في المدرسة.. يبدو أنه مهم.. استقبله مدير المدرسة باهتمام بالغ.. دعانا إلى الصمود في طابور المدرسة فالحرب آتية.. همست إحدى زميلاتي "إن الدراسة ستتوقف بسبب الحرب".. فرحت صديقتي (ميساء) التي تضحك دائما وقالت "سنرتاح قليلا من المدرسات والواجب المنزلي".. لا أعرف لماذا خشيت على المدرسة، أمي تناديني.. سأعاود الكتابة لاحقا.

الأربعاء.. ٢٠٠٣

في طريق العودة من المدرسة لاحظت عددا من السيارات البيضاء (مطبوع عليها حرفين كبيرين).. بالدراسة والخبرة كنت أعرف أنها سيارات الأمم المتحدة.. اعتدنا مشهدها وهي تفتش المصانع والمنازل.. لم أهتم، سرت في طريقي إلى البيت وفي رأسي سؤال واحد: ماذا أعدّت أمي للغداء؟.. افتقدت أمي كثيرا اليوم.. لماذا؟! لا أعرف.

الأحد.. ٢٠٠٣

اليوم سألت أمي: كيف مات أبي؟.. لم أكن قد سألتها من قبل.. بكت كثيرا.. من بين دموعها التقطت كلمات قليلة.. قالت أمي: إن العسكر قتلوه.. رفض الالتحاق بالجيش الذاهب إلى غزو الكويت.. اعتبروه خائنا.. أمي قالت: إنه كان بطلا.. علّمونا في المدرسة أن من يفر من ميدان المعركة يكون خائنا.. لكنني أعتقد أن أمي على حق.. احتضنتها وبكيت.

السبت.. ٢٠٠٣

أعلنوا اليوم في المدرسة عن فتح باب الجهاد لمقاومة العدوان الأمريكي.. قيدت اسمي.. أخبرت أمي، فبكت.. وقالت:

- كفى من ضاعوا..

أعلنوا اليوم في المدرسة عن فتح باب الجهاد لمقاومة العدوان الأمريكي.. قيدت اسمي.. أخبرت أمي، فبكت.. وقالت:

- كفى من ضاعوا..

احتضنتني وبكينا سويا.. في المساء تسللت إلى مكتبة أبي.. كانت ضخمة ومغلقة منذ أن مات.. رفضت أمي بيع كتبه رغم حاجتنا لكل درهم.. قالت نبيع كل شيء إلا كتب أبي.. جلست إلى مكتبه الصغير البسيط الأنيق.. كان ينال من أمي عناية يومية وكأنها تنتظر أبي ليجلس إليه.. قلبت في أدراجه الصغيرة.. أوراق مطوية.. لا بد أنها لأبي.. لا أعرف خطه لكنني أشعر أنها سطوره.. كانت قصيدة شعر عن العرب والعروبة لم أفهم شيئا.. طفت على الكتب المتراصة.. لم أفهم منها شيئا.. لا أحب سوى الروايات الرومانسية ومجلات الفن.. تسللت خارجة من الحجرة لأكتب.

الأحد.. ٢٠٠٣

أول يوم لي في معسكر التدريب.. وجدت زميلات لي في المعسكر.. بجدية وتصميم تلقينا درسنا الأول في استخدام السلاح والخطوة العسكرية.. أعطونا ثيابا سوداء.. وبنادق ثقيلة وثلاث محاضرات، تحدث فينا ضابط بشارب كثيف عن حماية أرض الوطن بدمائنا.. لا أعرف لماذا تذكرت أبي؟!

دمعت عيناي.. أفقت على هتافات الفتيات.. فهتفت معهن.. انتهى اليوم.. وفي طريق العودة لمحت أخا صديقتي (ميساء) ينظر إليّ كالعادة نظرات غامضة.. عيناه هذه المرة تمتلئان حزنا وربما إرهاقا.. كان عائدا لتوه من مركز المتطوعين أيضا.. أنا مرهقة جدا.. سأنام الآن.. فالتدريب سيكون في الصباح الباكر.

الخميس.. ٢٠٠٣

اجتزنا ثلاثة أشهر من التدريب.. أصبحنا مؤهلين لأعمال الحراسة.. أجدنا إطلاق النار.. كلفونا بحماية الحي الذي نسكن به ليتفرغ الجنود للمعركة التي صارت وشيكة كما يقول التلفاز.. نتناوب الحراسة صباحا ومساء.. يتحدثون كثيرا عن الحرب.. لا أعرف معنى هذه الكلمة أشاهد الطائرات والدبابات وأمسك بسلاحي فهل هذه هي الحرب؟! أقوم بواجبي فقط.. أمي صارت شاحبة وكذلك أختي.. إنني أحبهم جدا.

.... ؟؟

لا أعرف ما تاريخ اليوم؟! فقدت إحساسي بالزمن.. في نوبتي الليلية سمعت انفجارات قوية.. وأصوات طائرات تقترب.. ارتعدت.. أيها الجبناء.. أصوات طلقات الرصاص

تُدوي.. الطائرات تقترب أكثر فتمحوها.. أنا خائفة.. أصرخ فلا يسمعني أحد.. أطلق الرصاص في اتجاه الطائرات.. البيوت تهوي من حولي.. الحرائق تشتعل.. صرخات النساء والأطفال أعلى من صوت الطائرات والرصاص.. أجـري إلى بيتنـا.. أتعثر.. أقوم.. أتعثر.. تنفجر قنبلة خلفي.. أسقط.. أفيق بعـد فترة.. لا أشعر بشيء.. سلاحي بيدي.. بيتنا يقترب.

أين البيت؟! انهار البيت.. أين أمي؟.. الأنقاض تـشتعل.. كتب أبي.. أوراقه.. جسد أمي.. أشلاء أختي.. كـل شـيء احتواه الجحيم.

أجري.. أتعثر بجثث وأشلاء.. صديقتي ميساء.. صرخت.. كانت ممزقة الأشلاء.. وجهها احترقـت عليـه الابتـسامة.. نظرات أخيها الغريبة لم يبق منها سوى (عيـنين جامـدتين) تحلقان في الطائرات القاتلة.. أجـري إلى مدرسـتي.. طالهـا الجحيم أيضا.. ماذا تبقى؟

سلاحي مازال بيدي.. ودفتر اليوميات.. أيـن أنـا؟! لا أعرف.. لا أشعر بجسدي..

هل أموت؟.. هل مت فعلا؟.. هل ما زلـت حيـة؟.. لا أعرف.. شيء واحد فقط عرفته.. معنى الحرب.

* نشرت في ٢٠٠٣/٠٣/١٨ للمشاركة في إحدى فعاليات رفض الحرب علـــى العراق

قبلة على الورق



وقفت عند أول مكان تعودت أن أقف عنده عندما أفد إلى المكتبة.. عند ذلك الرف المتواري وسط الأرفف المكدسة بالكتب.. رف محمد عبد الحليم عبد الله.. يتمتع بعزلة وهدوء في ركن قصي من المكتبة.. ربما كانا مستمدين من طبيعة ذلك الكاتب الرومانسي.. وكأنما يد القدر قد وضعت الرف الذي يحمل رواياته ومجموعاته القصصية في قلب المكتبة الهادئ مثلما يقبع هو في قلوب قرائه.

تنقلت عيناي بين عناوين الروايات والمجموعات المعروضة.. علّني أجد إحداها لم أقرأها من قبل.. تناولتها جميعاً.. وأعدتها إلى مكانها فقد قرأتها جميعا.. كدت أمل من عناء البحث إلى أن وجدت ضالتي في نهاية الرف، حيث يقبع كتاب يبدو جديدا — على الأقل بالنسبة لي — تناولته مسرعا كعادتي، فقد كان الشعور بالخوف من أن يسبقني إليه أحد يملؤني.

هي وأنا!!

كنا نقف عند هذا الرجل طويلا نختار ذخيرة الأيام التالية من أعماله.. لم نكن نقرأ كلماته.. بل كانت هي التي تقرأنا.. نقف سويا نختار منها الجديد.. تتلاقى أيدينا على صفحاته.. وقلوبنا بين سطوره.. تقلب بأناملها الرقيقة الكتب المصفوفة.. نتصنع الانشغال.. تقترب يداي من يديها.. تقترب.. تتلامسان.. تسحب يديها في خجل.. عبثاً أكرر المحاولة.. تعجبنا اللعبة الطفولية.. تستسلم في النهاية لمطاردتي.. أبثها الحب لمسا.. ترتعش يداها.. أبثه إليها همساً.. أمسك إحدى الروايات التي أكاد أحفظ كلماتها.. تبحث عن مناجاة الحبيبين.. أقرأها عليها.. وقلبي يرتل آيات الحب.. تطرق.. تنسدل.. رموشها الطويلة تكسو عينيها.. تغمضها وكأنها تستسلم لنشوة الغزل.. تضم شفتيها كأنها تتهيأ لتقبيل الهواء.. أصمت تتناول هي كتابا آخر وتقرأ.. كانت تجيد هي الأخرى التنقيب عن عيون الحب في واحات الأوراق.. ننهل منها حتى يرتوي كلانا.. أهديها كتاب.. تمنحني الآخر.. نستعير الكتابين ونرتحل.. في منتصف الليل أحداثها.. نتلو مقاطع حب جديدة.. أو نبكي لفراق حزين.. نقفز فرحاً للقاء بطلي الرواية.. تناديني باسم بطل روايتها.. أناديها باسم بطلة روايتي.. نغير النهايات الحزينة.. نصنع فرحتنا.. فنحن نهوى الشجن.. ونبغض الأحزان.

والآن يد واحدة فقط تقلب وجوه الكتب.. تعبث بها على غير هدى.. لعلها تجد جديداً.

هيّج مشهد الروايات التي قرأناها سنوياً والمطروحة كالجثث على الرف الكئيب بداخلي مشهد النهاية لقصتنا.. كانت سطوره لا تزال بداخلي تنزف.. والكلمات تقطر دماً في ذكرى الرحيل.. صرت أقلب في صفحات الروايات والقصص.. أبحث بينها عن دمع يواسيني.. عن حضن يحتويني.. أحال الصفحات سواد.. والأسطر تئن لفراقنا.. وقبل أن تسقط مني دمعة لتطفئ لهيب الذكريات.. لمحت من بين غمام الدمع شيئاً غريباً.. مجموعة الضفيرة السوداء.. آخر مجموعة كانت تقرؤها قبل الرحيل..

تناولت الكتاب بلهفة .. سبحت عيناي في غلافه.. أدهشني الشبه بينها وبين صورة الفتاة الراقدة على غلاف المجموعة.. ربما كانت هي.. وربما كانت الذكرى قد صبغت كل شيء بلونها.. أتراها مازالت تقرأ محمد عبد الحليم عبدالله.. أم أن زمان الحب قد ولى.. تذكرتها وهي تتعجب من أولئك الذين يتكالبون على أرفف كتب الخيال العلمي أو كتب السياسة، وتقول لو يعلمون ما في هذه الصفحات التي بين أيدينا من روعة لما قرأوا غيرها، ولكن الحمد لله أنهم لا يعرفون حتى نستمتع نحن بها جميعاً دون منازع.. كنت أتعجب من تلك الأنانية الجميلة.. وقبل أن أغرق في بحر الذكريات ثانية انتزعت نفسي من بين أمواج الماضي لألقي بها على شواطئ الواقع.. على ضفاف إحدى صفحات المجموعة.. كانت تحمل خاتماً

أعرفه جيداً.. لم أصدق.. أغلقت الكتاب.. فتحته ثانية.. إنها هي.. نعم هي.. شفتاها مطبوعتان على وجنة الأوراق.. أعرفهما جيداً.. طالما تذوقتهما.. كيف أنسى طعم وشكل فاكهة الجنة.. نفس اللون الذي أعشقه.. كدت أصرخ من النشوة.. وكأنها هي قد ارتمت بين أحضاني.. ضممت الكتاب إلى صدري.. غاص بين أضلعي.. أحسست وكأنها ترقد بداخله.. أتراها تقبل الكتاب.. أم أنها تبعث إليّ بتلك القبلة عبر هذا الوسيط الحبيب.. هل كانت تعلم أن الكتاب سيصلني فأرادت أن تمنحني قبلة الحياة.. هل.. وهل.. وهل .. أسئلة كثيرة لم أستطع أن أجد لها إجابة.. وطبعت على شفاهها قبلة.. وتراءت لعيني عيونها الخجلى ووجهها المدرج بالحمرة.. حتى ولو كانت القبلة على وجنة كتاب.. تلفتُ حولي وخشيتُ أن يكون أحد قد رآنا فتزداد خجلاً.. بسرعة خبأت الكتاب في صدري وعدت به مسرعاً إلى البيت لنجلس معاً.. ونستعيد حباً طالما تشوقنا إليه.. أبثها مقاطع الغزل ونغير سوياً النهايات الحزينة ما دمنا لم نستطع أن نغير نهايتنا سوياً.

بـــلاي بـــوي

كسا المساء المكتب الأنيق المطل على النيل، الواقع في بـــرج التجارة العالمي الفاخر.. أضواء خافتة تنبعث من شرفة المكتب الزجاجية داكنة اللون التي تبدو كمرآة من الخارج فتحجـــب رؤية ما بداخلها.. آخر أنفاس النهار تنعكس على صفحة الماء لتنبئ بانقضاء اليوم.. أضواء أعمدة الإنارة على الكـــورنيش والكباري والفنادق المحيطة تعلن مقدم الليل.

كان لا يزال على نفس جلسته منذ الصباح.. لم يقم مـــن أمام الكمبيوتر منذ جاء إلى العمل في الثامنة صباحاً.. غـــذاؤه تناوله وهو يحدق بشاشة الجهاز الذي احتـــواه كليـــة وأخـــذ يطوف به عوالم مختلفة، بين البورصات العالمية، الأوراق المالية، أسعار النفط.. بضغطة واحدة على أحد تلـــك الأزرار يحـــول ملايين الجنيهات.. يرفع بمن يريد إلى السماء، ويخـــسف بمـــن يشاء إلى أعماق الأرض.. كل هذا وهو جـــالس في حجـــرة مكتبه المكيفة، ذات الأساس الأمريكي البسيط.. لم يهتم بالنظر إلى الساعة إلا عندما جاءته تموء كقطة جائعة تبحث لديه عـــن بعض الحليب!

التصقت بكتفه.. أحس بحرارة جسدها الفائر.. يعرف جيداً متى تريده.. لم يسع إليها قط.. دائماً هي تأتيه.. يتعامل معها كأنثى ولا ينسى أنها أيضاً سكرتيرته الخاصة.. الخاصة جداً.. منذ سنوات وهو يعشق هذه النظرة من عينيها.. نظرة الحنين إلى رجولته.. يأسره ضعفها الأنثوي.. تشعره كأنه وحش كاسر.. إنسان بدائي يحطم الكون بذراعيه.. لم ينطق بكلمة.. أغلق جهاز الكمبيوتر بهدوء.. انتزع رابطة عنقه بعنف.. استدار إليها.. نظرت إليه في وداعة ورقة تستجديه المزيد.. دفعها إلى الحائط.. عبث بكل جسدها بعنف.. عضها في شفتيها.. كانت تتألم فيزداد عنفه.. وتزداد هي تراخياً بين يديه.. جردها من ملابسها.. وقف ينظر إليها.. عارية.. ترتعش.. ألقاها على الأرض وضاجعها.. ثلاث مرات.. تكرر هذا المشهد.. في الثالثة وفي قمة نشوتها هتفت:

- أعشقك.. اعشق عنفك!

ارتعشت أطرافه وهو ممسك بها.. كان قد ارتوى وارتوت.. تدافعت إلى ذاكرته صور عديدة من الماضي.. تلاشت كلها لتقف عند فترة بعينها.. عندما كان يدرس الدكتوراه في أعرق جامعات أمريكا.. كان يشعر بأنه يضع مستقبل العالم.. ينقله من البدائية إلى المدينة الحقيقية.. لكنه مع هذا لم يستطع أن يتخلى عن الوحش البدائي بداخله.. أراد أن يتخلص منه.. أن يلبسه بدلة أنيقة.. أن يداعب امرأته في الفراش بالفرنسية.. أن يجيد الحديث عن الحب مثلما يجيد

ممارسته.. لم يستطع أن ينسى صورة أول امرأة عرفها وتمناها هناك.. أراد أن يروّض لها وحشه البدائي.. اعتذرت له في أدب.. لأنها شاذة!!

أفاق من ذكرياته على صوتها وهي ترد على هاتفها المحمول.. تحركت في أرجاء الغرفة عارية ترد على من يهاتفها بالإنجليزية.. حدّق في مؤخرتها وهي تهتز.. اندهش.. كيف تستمتع هذه المرأة المليئة بالمدنية بوحشيته البدائية.. لم ينساق وراء البحث عن إجابة.. قام إليها.. انتزع الهاتف منها.. ألقاه بعيداً.. انطلقا في رحلة صراع جديدة - وربما تلاق - بين مدنيتها ووحشيته.. بينما كانت تأوهاتها تغطي على صوت ذلك المتحدث عبر الهاتف من أقصى أطراف الكون وقد انزوى في أقصى أطراف الحجرة بجوار سلة المهملات.



السجادة الحمراء

منذ الصباح وأنا أستعد لتلك اللحظة التي ترتقي فيها خطواتي سلّم التتويج.. وأنا أمد يدي لأتسلم الجائزة.. التفاتتي لجمهور الحاضرين.. نظرة الثقة والهدوء على وجهي.. ابتسامة الفرح وأنا أواجه الجمهور رافعاً يدي اليمنى بالجائزة.. كلماتي وأنا أتلو خطاب الفوز.. كل التفاصيل فكرت فيها حتى أصغرها.. لابد أن يتم كل شئ على أكمل وجه.. لا أستطيع أن أفعل أي شيء.. اطمأننت على كل المتعلقات عشرات المرات.. البدلة، رابطة العنق، الحذاء، كلمة الفوز، العطر، كل شيء..

جلست التقط أنفاسي.. امتدت يدي الى صحف الصباح.. خبر فوزي وتكريمي في صفحاتها الأولى.. صورتي تزين الكلمات.. لم أكن أتصور أن علامات الشيب التي بدأت تغزو خصلات شعري الجانبية ستظهر في الصورة.. ياه.. للسنوات طعم مرير.. ألم السنوات لمحته في تلك الشعيرات البيض.. ربما

لم يرها أحد سواي.. كل شيء يهون.. المهم أن لحظة التتويج قد حانت.

استلقيت على الأريكة المواجهة لشرفة منزلي تطلعت إلى الأفق الممتد.. تهادت عبره ذكريات العمر، تراءت مع شعاع الشمس المتسلل لعيني.. رأيت ذلك الطفل الصغير.. دودة الكتب كما كانوا يطلقون عليّ.. الشاب المفعم بحب القراءة.. عاشق الأدب.. قصتي الأولى.. ساذجة.. عطر البراءة يفوح من سطورها.. دور النشر التي رفضتني لأول مرة.. أول قصة تنشر في صحيفة أدبية.. مجاملات الأصدقاء.. أول رواية.. أول مسرحية.. ندواتي الأدبية.. آراء النقاد.. احتراف الأدب.. عذابات السنين التي عشتها وحيداً من أجل الكتابة.. تزوجت الفن لأنجب قصصاً وروايات.. كدت أضحك.. عاودتني أحزاني القديمة.. ليس معي أحد يفرح لي الآن.. أفتقد وجه أمي وهي تدعو لي.. ليتها كانت معي الآن.. كانت أول من تنبأ لي بهذه المكانة.. أبي وهو عائد من عمله حاملاً لي أحدث الكتب.. حتى إخوتي وهم يفسدون عليّ متعة الانعزال والقراءة.. كلهم ذهبوا.. وحدي أفرح الآن.. دائماً وحدي.. حتى الحب الذي طالما كتبت عنه لم أستطع الحفاظ عليه.. أضعته من أجل مستقبلي.. تركتها لأجل الأدب.. لم تستطع أن تكمل معي المشوار.. وتذكرت آخر لقاء.. دموع الوداع داهمتني.. لا أريد شيئاً يفسد فرحتي اليوم.. كفاني أحزاناً.. أخيراً جاء موعد التتويج.. الآن تداوي يد القدر جراح الأيام

وندوب السنوات التي تركت آثارها على القلب والجسد.. الآن أتلقى جائزة التضحيات.. نعم كل شيء يهون لأجل هذه اللحظة.. كل شيء!!

تتابعت خطواتي بأسرع مما كنت أتصور.. قاعة الاحتفال رطبة وأحياناً خانقة.. جمع كبير من الأصدقاء والخصوم.. نقاد وصحفيون.. مسئولون وفنانون.. كل هؤلاء احتشدوا اليوم من أجلي.. أشعر أني أهم إنسان في الكون.. الغرور يملأ عليّ قلبي.. أرد التحايا بهدوء مصطنع.. قبّل الأصدقاء – أو من يتظاهرون أنهم كذلك – تتناثر على وجهي أضواء الكاميرات وتغمرني.. أتصنع الضيق منها.. تأتي اللحظة الموعودة.. أرتقي سلم التتويج.. هكذا.. رتبت.. اليمنى أولاً.. اليسرى.. اليمنى.. انتهى السلم.. واقف أنا الآن على منصة التتويج.. الأضواء الكثيفة تغمر المسرح وعيني.. أحاول النظر لأسفل.. لا أرى شيئاً.. فجأة تصطدم عيني بوجه أعرفه جيداً.. وجه أحببته يوماً.. وتركته من أجل هذه اللحظة.. لماذا جاءت الآن.. أتكون هي الجائزة..أيأتيني المجد والحب في لحظة واحدة؟.. يا لكرمك أيها القدر!!

نعم هذه هي الجائزة.. ابتسمت لها.. بادلتني الابتسامة.. شريط طويل من ذكرياتي معها بدأ يلوح في أفق ذاكرتي.. لولا أن طُلب مني إلقاء كلمة الفوز.. تمنيت لو ألقي بالأوراق بعيداً وأترك المسرح وأجري إليها لألقي بنفسي في أحضانها.. أرمي

بالجائزة تحت أقدامها.. أنطلق معا نستعيد سوياً ما سلبته الأيام منا.. تمنيت ذلك.. لكن ماذا سيقول الحاضرون.. ترك الجائزة من أجل امرأة.. آه لو تعرفون ماذا تعني لي هذه المرأة.. إنها ألف ألف جائزة لو تعلمون.. للمرة الثانية لم أستطع اتخاذ القرار.. تركتها من أجل مجدي.. ألقيت الكلمة.. أسرعت بالنزول اليها.. استقبلتني بابتسامة افتقدتها.. أمسكت يديها بحرارة الماضي.. لم ألق بالاً لمن حولي.. نظرة خجلي أطلت من عينيها.. سألتها أين كنت؟! لماذا أتيت؟! هيا بنا نرحل من هنا!

كلمة واحدة فقط قالتها:

زوجي!!

وقدمت إليّ رجلا وسيما.. مهندم الثياب، وبين الوعي والغيبوبة تركت يدها ومددت يدي أتلقى كف الرجل الممتد نحوي.. أصيب عقلي بالشلل.. وكأنما ارتطم فجأة بجبل.. تناثرت شظاياه على السجادة الحمراء.. وكأنها تسبح في دمائي.. أجاءت اليوم لتهنئني على الجائزة أم لتقول لي افرح بها وحدك.. هذا ما كنت تحلم به قد حققته.. أما أنا فقد كان حلمي بسيطاً.. بيت وأسرة.. وقد نال كلانا ما تمنى!.

ودعتني وزوجها على وعد بلقاء قريب، كما قال الزوج الذي يهوى أدبي.. كالمصدوم وقفت أنظر إليها وهي تبتعد.. مدت يدها تمسح دمعة.. ربما كانت ندماً.. أو فرحاً.. أو

حنيناً.. أو حزناً.. أما أنا فلم يكن لديّ وقت حتى للبكاء..
فقد التف الجميع حولي يهنئونني بالجائزة.. وأنا أرنو إليها في
ذراع زوجها.. وأعود أنظر إلى الجائزة في يدي.. والسجادة
الحمراء تحت قدمي.

الشيخ منصور



لعنة الله على الزحام..

إيه الناس دي كلها؟!

يا ساتر يارب..

ده احنا بقينا كوم لحم!

الكل ينطق إلا هو.. الكل مستاء ما عداه.. وحده فقط كان مستمتعا بما يحدث.. حدق بعينيه الكسولتين في لا شيء.. أمسك بلحيته.. تصنع أنه غائب في تسابيحه.

كان مشهده يوحي بالتقوى والورع..لحيته..شاربه المحفوف بعناية..أثر السجود في وجهه..جلبابه الابيض القصير.. المصحف الذى لا يفارق يده ..شفتاه اللتان ترتعشان في سرعة..تلهج بحركات كثيرة غير مسموعة.. ولا يمكن تفسيرها من سرعة تتابعها .

توقف المترو في محطة "رمسيس" في اتجاهه إلى حلوان.. عدد كبير من الركاب نزل.. عدد أكبر صعد.. تسمرت عيناه على صدر ناهد اقتحم حرارة المترو،

فزادها سخونة، لكنه أحس أنه انتشى وانتعش.. رياح باردة هبت من صدرها المتفجر بالأنوثة ولفحت وجهه الملتهب.. تمنى لو كان حتى حشرة تستطيع التنقل في أي مكان.. كان سيختار هاتين الكرتين اللتين زادهما الفستان الأبيض الناصع تألقا ليكونا وسادته ومستقره.

غاب في خيالاته.. حشرة.. أنا حشرة ؟! .. وما أنا غير ذلك.. أفاق على عيون الفتاة وهي تصفعه صارخة:

- حتى انت أيها شيخ ؟!!

ارتبك.. شعر بأنه يقف عاريا وسط الركاب.. استدار إلى الجهة الأخرى حتى لا يرى أحدا ولا يراه أحد.. ولسان حاله يقول: هكذا أفضل!

توالت الأضواء واهنة.. متباعدة في النفق المظلم الذي لا ينتهي.. شعر أنه أكثر راحة في وقفته الجديدة بعيدا عن الناس قال لنفسه:

- كم أمقت هؤلاء البشر الأغبياء.. لا أحد يشعر بي.. كلهم يحتقرونني.. حتى النساء اللاتي أعشقهن يحتقرنني.. إنني لا

أتمالك نفسي أمام أي صدر ناهد أو أرداف مكتنزة.. كلهن يرفضني.. لماذا ؟! .. إنني أكرههن.. أكرههن.. لا أحد يحترمني.. لا ..

لكنه سرعان ماعاد لنفسه وهتف في داخله:

- الشيخ منصور وحده يحترمني.. كم أحب هذا الرجل.. يعاملني كأخيه الصغير.. إنه يستحق أن يكون الأمير فعلا.. يعاملنا جميعا برقة وأخوة.. إنني أقضي أسعد لحظات حياتي بجواره وهو يناديني: يا أخي.. انت ياشيخ منصور الإنسان الوحيد الذي يستحق أن أحترمه.. وأخدمه بعيني.

وتغيرت ملامحه وكساها الندم وهو يهمس في تذلل:

آسف يا شيخ منصور،لقد ضعفت ثانية ونظرت إلى النساء..قذفني إبليس بسهامه.. أنا ضعيف.. وأنت تعلم ذلك.. سأعترف لك.. وأعرف أنك ستسامحني وتدعو الله لي عندما نلتقي في درس المغرب بعد قليل .. وتساعدني لكي أجاهد الشيطان.. وأتغلب على وساوسه.. في المرة القادمة سأهزم هذا اللعين.

محطات عديدة مرت لا يدري عددها.. لم يكن يرى سوى صورة الشيخ منصور وصدر الفتاة.. تتناوبان الظهور والاختفاء بين الأضواء المتقاطعة واللاهثة مع أرصفة المحطات وجدران النفق المظلم.

فجأة توقف المترو.. وانطفأت الأنوار.. وخيم على القطار ظلام دامس.. انتظر الجميع أن يعود التيار الكهربي مرة أخرى.. لكن خاب ظنهم.. وطالت فترة الانتظار .. دقائق بدت طويلة مع الزحام الخانق.. وبدأت الاحتجاجات تتصاعد.. الكل يتأفف.. لكن وسط كل هذا الضجر شعر بشيء آخر.. لم يتوقع أبدا أن يداهمه في هذا الظلام .. جسد بض متخم بالتفاصيل يكاد أن يحتويه من الخلف.. ربما ألقت به أمواج الزحام إلى شاطيء جسده المتلهف الجائع.

- مرة أخرى سأضعف.. سامحني يا شيخ منصور.. غلبني الشيطان ثانية.

ترك جسده ينساب مع تفاصيل كومة اللحم التي التصقت بمؤخرته، وغطت ظهره كاملا، بل كادت أن تحتضنه.. وبدأ يجنح في خيالاته.. أهي فتاة صغيره استهوتها التجربة.. أم ربما سيدة ناضجة تجيد لغة الأجساد.. وهمسات الاحتياج..أم يا ترى هي صاحبة الصدر إياها.. هل استجابت لندائه الصامت؟!

قرر أن يقطع الشك باليقين.. حاول أن يرى صاحبة هذا الاقتحام الجميل في انعكاس الزجاج.. لكن العتمة لم تمكنه إلا من رؤية ذلك الثوب الأبيض الناصع الذي انعكس بوضوح على الزجاج، بينما اختفت الملامح تماما.. بدت كملاك تائه..

أتته على غير توقع لتمنحه لحظات من السعادة ولو كانت مسروقة في هذا الظلام الذي صار محببا.

لابد أنها إذن ذات الرداء الأبيض والصدر الناهد .. ألصق جسده أكثر وأكثر بها.. لم تتحرك.. انتظر رد فعلها.. فلم تبد ضيقا أو تبرما.. داهمته سعادة غامرة، وهتف من أعماقه:

- إنها تريدني.. تريد المزيد!!

استدار بوجهه والتصق بكامل جسده.. واطمأن إلى أن أحدا لم يلحظ شيئا، فالكل غارق في الظلام وحبات العرق والقلق المتزايد مع طول الانتظار.. وكان كل ذلك يعني أن فرصته في اقتناص المزيد من المتعة لا تزال سانحة.. ولم يتردد هذه المرة.. افترس كل استدارات الجسد اللين، الذي بدأت ليونته تزداد، كلما زاد هو عنفا.. وكأنما تتجاوب معه.. بل إنه شعر وكأنه يسمع آهاتها المكتومة كلما ازداد التصاقا بهذا الجسد السخي.

- اللعنة ثانية على الناس!!

يشعر بحاجته إلى احتضان هذا الجسد الممتع.. انطلق في انفعاله، وصل إلى الذروة.. استجابت كل خلاياه لنداء الارتواء.

- معلش يا شيخ منصور سامحني.. لو كنت انت مكاني لما استطعت أن تقاوم!!.. سامحني يارب!!

زاد امتزاج الجسدين.. واحتراقهما.. وشعر أن ماءه يصعد من أعماقه.. وفجأة وفي تلك اللحظة الحرجة أضاءت كل أنوار القطار.. عادت الحياة.. وليتها ما عادت.

لكنه بلا وعي نظر إلى صاحبة الجسد البض والرداء الأبيض.. ولم يتمالك نفسه.. وصرخة تنطلق بلا قيود قوضت كل جسده:

يا نهار أسود .. هو انت يا شيخ منصور !!

الفهرس

تعريف بالمؤلف

- أسامة السعيد
- صحفي مصري
- حاصل على بكالوريوس الإعلام من قسم الصحافة بجامعة القاهرة.
- يعمل حاليا كمحرر للشئون السياسية والبرلمانية بجريدة الأخبار اليومية.
- يكتب القصة القصيرة منذ أكثر من ١٠ سنوات ونشرت له عدة أعمال في صحف (أخبار الأدب، مجلة القصة، الثقافة الجديدة) وعدد من الدوريات العربية والمواقع الإلكترونية الأخرى.
- له عدة أعمال إبداعية تحت الطبع حاليا.
- يمكن التواصل معه من خلال البريد الإلكتروني:

Ossama_alsaid@hotmail.com

- أو من خلال مدونته "السلطان الحائر"

http://alsoltanosama.blogspot.com

و"كرمة العشاق"

http://karmaosama.blogspot.com

